دكتور بهاء الأمير

آل عثمان حماة مياه الإسلام

٢٠١٩م





دكتور بهاء الأمير

آل عثمان حماة مياه الإسلام(•)

٢٠١٩م

•) من كتاب: اليهود والحركات السرية في الكشوف الجغرافية وشركة الهند الشرقية البريطانية.

مسار عالم الإسلام

يقول ابن خلدون في مقدمته:

"الخلافة هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به ... وكذلك مروان بن الحكم وابنه، وإن كانوا ملوكاً فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، وإنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم إلا فى ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة، يشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء، فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك، وأما مروان فكان في الطبقة الأولى من التابعين، وعدالتهم معروفة، ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه ... ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيها واعتماد الحق في مذاهبها، فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم وأدالوا بالدعوة العباسية منهم، ووَلي رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان، وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا، حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان منهم الصالح والطالح، ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً، فتأذن الله بحربهم وانتزاع الأمر من أيدي العرب جملة، وأمكن سواهم منه، والله لا يظلم مثقال ذرة"(١).

ومما قاله مؤرخ عالم الإسلام، تعلم أنه كما أن لليهود والحركات السرية مساراً تَسير فيه وتُسيّر الغرب الذي تتغلف به، وتتوارث العمل من أجل إتمامه، من أول منظمة فرسان الهيكل، مروراً بمنظمة فرسان المسيح والماسونية وغيرها من الحركات السرية التي انحدرت منها، وصولاً إلى الأشكال الجديدة التي تحورت إليها في القرن العشرين، كالمنظمات الدولية والمؤسسات النقدية،

---

(١) المؤرخ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون: المقدمة، ج ٢، ص٥٧٧، ٦٠٤ ، مهد لها، ونشر الفصول والفقرات الناقصة من طبعاتها، وحققها، وضبط كلماتها، وشرحها، وعلق عليها، وعمل فهارسها: دكتور علي عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

فعالم الإسلام أيضاً له مسار بدأ بالوحي والدولة النبوية، والمهمة الأولى لدول الإسلام جميعها من بعد الدولة النبوية، هي حفظه والقوامة عليه، فإذا خرجت دولة عن المسار، أو ضعفت ولم تعد لديها القدرة على حفظه والحفاظ على بلاد الإسلام فقدت أساس شرعيتها وأول مبررات وجودها، ليحل محلها من هو أولى منها بالقوامة على المسار وأقدر على حفظ بلاد الإسلام.

ودولة المماليك دولة عظيمة، حافظت على مسار عالم الإسلام، وورثت الدولة الأيوبية في مواجهة الصليبيين حتى أجلتهم عن بلاد الإسلام، ووحدتها، وسحقت المغول وردتهم عنها، لكنها ضعفت في أواخر عهدها، سنة الله في خلقه، وفقدت السيطرة على أطرافها، ولم تعد قادرة على حفظ وحدتها ومسارها، والبرتغاليون ورجال منظمة فرسان المسيح، كما رأيت، كانوا قد اخترقوا الخليج وسيطروا على سواحله ووصلوا إلى دجلة والفرات، وتوغلوا في البحر الأحمر ووصلوا إلى جدة، وصاروا فعلاً في بطن بلاد الإسلام، وسيطروا على طرق التجارة منه وإليه.

وكانت دولة آل عثمان، هي التي اختارها الله عز وجل، لتحفظ مسار عالم الإسلام، بتوحيد بلاده، وإخراج البرتغاليين من بطنه وأحشائه المائية، ولولا ذلك لكان ما يحدث في بلاليص ستان في زمانك وتشاهده الآن قد حدث منذ خمسة قرون، ولكان هيكل بني إسرائيل أمامك قائماً.

الدولة الصفوية وانشطار عالم الإسلام

الدولة الصفوية والدولة الفاطمية:

إبان القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كانت فارس كلها سنية، عدا بعض المدن والبلدات المتفرقة، أكبرها كاشان وقُم.

ونقلاً عن المصادر الفارسية والتركية، يقول دكتور بديع جمعة ودكتور أحمد الخولي، وهما أستاذان للتاريخ الفارسي في جامعة القاهرة، في كتابهما: تاريخ الصفويين وحضارتهم، إن:

"السلطة والنفوذ في فارس كانت مقسمة بين أسرة آق قويونلو، أو الخراف البيضاء، لأنهم كانوا يتخذون الخروف الأبيض شعاراً لهم، وهي أسرة تركية سنية، وبين أسرة قرا قويونلو، أو الخراف السوداء، وهي أيضاً أسرة تركية سنية، فكانت أسرة آق قويونلو تسيطر على الأجزاء الشرقية والوسطى من فارس، وأسرة قرا قويونلو تسيطر على الأجزاء الغربية وما يتاخمها من آذربيجان وأرمينيا"[١].

وتمكن أوزون حسن بيك، سلطان دولة آق قويونلو من هزيمة قرا يوسف، سلطان قرا قويونلو، ثم هزم ابنه جهان شاه، سنة ١٤٦٧م، ودخل أرمينيا وأذربيجان، فأسقط دولة القرا قويونلو، ووحد فارس تحت سلطته، واتخذ تبريز عاصمة لدولة الآق قويونلو[٢].

وكان صفي الدين أبو إسحق الأردبيلي، وهو الجد الخامس للشاه إسماعيل، مؤسس الدولة الصفوية، قد أسس طريقة صوفية في أردبيل شمال غرب فارس، سنة ٦٥٠هـ/١٤٣٤م، وورث رئاستها أبناؤه وأحفاده من بعده.

ويقول المؤرخ التركي يلماز أوزتونا، في كتابه: تاريخ الدولة العثمانية، إن جنيداً، حفيد صفي الدين الأردبيلي ورئيس الطريقة الأردبيلية:

---

١) بديع جمعة وأحمد الخولي: تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص ١٢، ١٧، دار الرائد العربي، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص١٨.

"تحول إلى المذهب الشيعي، وكان المذهب الذي اختاره هو مذهب الشيعة الاثني عشرية، وهو ما ترتب عليه أن يرفض سلطة الخليفة"[1].

ولكن دكتور بديع جمعة ودكتور أحمد الخولي، أفردا في كتابهما باباً عن: منذ متى اعتنق شيوخ الأسرة الصفوية المذهب الشيعي؟ وبعد تحقيقهما للمسألة في مختلف مصادرها الفارسية والتركية، سنية وشيعية، وصلا إلى أنه:

"يبدو أن الشيخ صفي الدين كان سني المظهر على مذهب الإمام الشافعي، شيعي المخبر على مذهب الإمام جعفر، يقول ابن البزاز، أول من أرخ للصفويين، في كتابه: صفوة الصفا: "إن الشيخ صفي كان يكتم المذهب الجعفري"[2].

فهذه واحدة، وإليك الأخرى، فإذا كنت قد قرأت كتبنا السابقة، واطلعت على ما أوردناه فيها من سير اليهود الأخفياء، وما في سلوكهم من غرائب، كتمويههم لأصولهم، وحيرة من يؤرخون لهم من تعددها وعجزهم عن تتبعها وتحديدها، واختلاقهم للأنساب، وانتقالهم بين الديانات، وإخفائهم لما يعتنقونه، واختلافه عما يظهرونه، فربما تقربك هذه وتلك من حقيقة الأسرة الصفوية.

بدأ بديع جمعة وأحمد الخولي كتابهما بباب عن: نسب الأسرة الصفوية، ويقولان فيه إن الكتب التي أرخت للشاه إسماعيل الصفوي، تصل نسبه ونسب جده صفي الدين إلى آل البيت، وتجعله من نسل الحسين بن علي بن أبي طالب، ومن أمثلة هذه الكتب: سلسلة النسب صفوية، لحسين بير زاده زاهدي، وتاريخ زاندكاني شاه إسماعيل صفوي، ليوسف بور صفوي، وعالم آراي عباسي.

ويعقب بديع جمعة وأحمد الخولي على ذلك، بأن:

"الكتب التي قالت بهذا النسب اعتمدت على كتاب: صفوة الصفا لابن البزاز، من أهل أردبيل، وقد ألف ابن البزاز كتابه هذا في زمان الشيخ صدر الدين موسى بن الشيخ صفي الدين، الذي كلفه بأن يصله إلى آل البيت، وقد كانت هذه البضاعة رائجة في هذا الوقت، وقد

---

١) المؤرخ يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٢٠١، ترجمة: عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: دكتور محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٨٨م.

٢) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٣٩-٤٠.

أعاد مير أبو الفتح الحسيني، بتكليف من طهماسب ثاني ملوك الصفويين تنقيح هذا الكتاب مؤكداً هذا النسب، في محاولة لإقرار المذهب الشيعي ... والكتابات التي بقيت منذ زمان الشيخ صفي الدين حتى زمان الشاه إسماعيل تدل على أن الأسرة الصفوية كانت منتشرة في أذربيجان، وعلى هذا الأساس فإن شيخ الأسرة الصفوية كان من أصل آري قديم يسكن في منطقة أذربيجان، وهذا ينفي انتسابه للحسين بن علي (تشكيل شاهنشاهي صفوية، ص٤٣ وما بعدها)، وفي رأينا أن الذين يقولون بانتساب الصفويين إلى آل البيت أرادوا أن يكسبوا الأسرة أحقيتها في الحكم، وقد حدث ذلك بتوجيه من أفراد الأسرة نفسها، وهنا لابد من ذكر رأي ثالث، وهو أن أجداد الشيخ صفي كانوا من كردستان ثم استقروا في أذربيجان، فقد ذكر ابن البزاز في صفوة الصفا، باب أول، ص١٢، أن فيروز شاه زُرين، جد الشيخ صفي، وكان شيخاً ثرياً يسكن ضاحية رانكين من توابع كيلان، قد خرج من سنجان يقصد تسخير أذربيجان"[1].

وهو ما يؤكده المؤرخ الإيراني دكتور عباس إقبال الآشتياني، في كتابه الضخم الذي نشره بالفارسية، سنة ١٩٣٣م، وترجمه دكتور محمد علاء الدين منصور، الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة، بعنوان: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الظاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، فيقول:

"وقد نسب مؤرخو العصر الصفوي السلاطين الصفويين إلى الإمام موسى الكاظم من ناحية آبائهم، وأنشأوا لهم شجرة هذا النسب، إلا أن هذه النسبة كاذبة، ولم ترد في المؤلفات التي أُلفت قبل عهد الشاه طهماسب الأول"[2].

ولكي تقترب من حقيقة الصفويين ودولتهم خطوة أخرى، عليك أن تقارن سلوك الأسرة الصفوية بالمماليك وآل عثمان، فالمماليك جاءوا إلى مصر والشام أطفالاً وصبياناً من أصول وبلاد مختلفة، في آسيا وأوروبا، فأسلموا وتربوا في حجر العلماء والمشايخ، وفي كنف سلاطين الدولة الأيوبية، وكثير منهم ضاعت أصولهم، ثم شادوا دولة مهيبة ذات بأس، وكان سلاطينها من

---

١) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٢٨-٢٩.

٢) دكتور عباس إقبال الآشتياني: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الظاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ص٦٤٠، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه: دكتور محمد علاء الدين منصور، راجعه: الأستاذ الدكتور السباعي محمد السباعي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م.

فحول الساسة والقادة المغاوير، ويقودون الجيوش بأنفسهم، وكسحوا الصليبيين والمغول، ورغم ذلك لم يرد على أحد منهم أن يُزوِّر له أصلاً أو يختلق نسباً، يزعم به أنه من آل البيت، ولا أن ينازع الخلافة، والخليفة في الحقيقة لا حول له ولا قوة، وهم من يقيمونه ويحرسونه، تعظيماً لنسبه القرشي.

وكذلك آل عثمان، فقد أقاموا دولة عظيمة هائلة الاتساع، تمتد في ثلاث قارات، وتحكم البر والبحار، وحين دخل السلطان سليم الأول مصر، تنازل له آخر خلفاء بني العباس، محمد المتوكل على الله الثالث، عن الخلافة وبايعه، فصار سلاطين آل عثمان هم خلفاء النبي على أمة الإسلام، ومع ذلك لم يفكروا في تزوير أنساب لهم، ولا في توظيف مؤرخين أو نسابة مدلسين ليصنعوا لهم أصولاً تصلهم بآل البيت، وقد كانوا قادرين على ذلك.

وخلاصة الصفويين ودولتهم في فارس، أنهم نظير الفاطميين والدولة الفاطمية في مصر.

في سنة ٢٦٠هـ أنشأ اليهودي عبد الله بن ميمون بن ديصان القداح حركة سرية، في أصفهان وما حولها من جنوب فارس، ومن حركة القداح خرجت الإسماعيلية والنصيرية والقرامطة وحركة الحشاشين، وكلها كانت نشأتها بأن خرج من انشأوها من فارس ونزل كل واحد منهم في بلد من بلاد الإسلام واتخذ اسماً عربياً قُحاً وزَوَّر له نسباً إلى أحد أئمة الشيعة وادعى أنه من آل البيت، والإمام الذي سيصلح به الزمان، وأقاموا بذلك دولاً وهدموا أخرى.

والدولة الفاطمية هي دولة الإسماعيلية، وأحد آثار القداح وحركته في العالم الإسلامي، وهي نفسها لم تكن سوى حركة سرية، يقول المقريزي المؤرخ في كتابه: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، نقلاً عن كتاب الفهرست لابن النديم[1](•)، عن نسب الفاطميين وعبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية:

---

١) ا المؤرخ أبو الفرج محمد بن إسحاق النَّديم: الفهرست، ص٢٣٨-٢٣٩، تحقيق: رضا- تجدد بن علي زين العابدين الحائري المازنداني، مطبوع على نفقة المحقق، طهران، مهرسته ١٣٥٠/١٩٧١م.

•) عبارات الفهرست لابن النديم مختصرة وبها إبهام، وعبارات المقريزي أوضح وعنده زيادات، ولذا أوردنا نص: اتعاظ الحنفا، وليس: الفهرست.

"وهؤلاء القوم من ولد ديصان الثنوي، الذي يُنسب إليه الثنوية، وهو مذهب يعتقدون فيه خالقين، أحدهما يخلق النور، والآخر يخلق الظلمة، فولد ديصان هذا ابناً يقال له ميمون القداح، وكان له مذهب في الغلو، فوُلد لميمون هذا ابن يقال له عبد الله، كان أخبث من أبيه، وأعلم بالحيل، فعمل أبواباً عظيمة من المكر والخديعة على بطلان الإسلام، وكان عارفاً عالماً بجميع الشرائع والسنن، وجميع علوم المذاهب كلها، فرتب ما جعله من المكر في سبع دعوات، يتدرج الإنسان من واحدة إلى أخرى، حتى ينتهي إلى الأخيرة، فيبقى معراً عن جميع الأديان، لا يعتقد غير التعطيل والإباحة، ولا يرجو ثواباً، ولا يخشى عقاباً ... ففر إلى البصرة ومعه رجل من أصحابه يعرف بالحسين الأهوازي، فادعى أنه من ولد عقيل بن أبي طالب، وأنه يدعو إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ... ومات عبد الله بن ميمون، فقام من بعده ابنه أحمد هذا في ترتيب الدعوة ... ثم هلك أحمد، فخلفه ابنه الحسين في الدعوة، فلما هلك الحسين بن أحمد خلفه أخوه محمد بن أحمد المعروف بأبي الشلعلع، وكان للحسين ابن اسمه سعيد، فبقيت الدعوة له حتى كبر ... واشتهر سعيد بسلمية وكثر ماله فطلبه السلطان، ففر من سلمية إلى مصر يريد المغرب، وسار حتى نزل سجلماسة وهو في زي التجار ... وكان خبره قد اتصل بأبي عبد الله الداعي الذي تقدم ذكر خروجه هو وأخوه إلى البربر، فسار أبو عبد الله الداعي حينئذ بالبربر إلى سجلماسة، وقتل واليها، وأخذ سعيداً، وصار سعيد صاحب الأمر، وتسمى بعبيد الله، وتكنى بأبي محمد، وتلقب بالمهدي، وصار إماماً علوياً من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ولم يلبث إلا يسيراً حتى قتل أبا عبد الله الداعي، وتملّك البربر، وقلع بني الأغلب ولاة المغرب، فعبيد الله الملقب بالمهدي، هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان الثنوي الأهوازي، وأصلهم من المجوس"(١).

ونعود بك إلى الطريقة الصفوية الأردبيلية، فبعد أن آلت رئاسة الطريقة إلى جنيد حفيد الشيخ صفي الدين، حولها إلى حركة سياسية، وأنشأ من مريديه منظمة عسكرية تابعة للطريقة، وتمكن جنيد من الاستيلاء على أردبيل بمنظمته، فتوجه لقتاله جهان شاه سلطان القرا قويونلو، وأجبره

---

١) المؤرخ تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا، ج١، ص٢٣-٢٨، تحقيق: دكتور جمال الدين الشيال، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

على مغادرة أردبيل هو وطريقته إلى ديار بكر، فاستقبله أوزون حسن سلطان الآق قويونلو، وزوَّجه أخته خديجة بيكم، رغم أن أوزون حسن كان سنياً.

وبعد عدة سنوات، ازدهرت فيها المنظمة وزادت قوتها العسكرية، ووصل عدد أعضائها إلى عشرة آلاف، تحرك جنيد بمنظمته العسكرية لمهاجمة البلدات في إقليم داغستان وبلاد الشركس، فصده خليل التركماني الملقب بشيروان شاه، حاكم مدينة شيروان، وهزم جنيد وقتله، سنة ٨٦٠هـ/١٤٥٥م.

وبعد مقتل جنيد تولى قيادة الطريقة والمنظمة ابنه حيدر، وزوجَّه أوزون حسن من ابنته حليمة بيكم، الملقبة بعلم شاه خاتون، ويقول المؤرخ الإيراني عباس إقبال الآشتياني، في كتابه، إن:

"زوجة حيدر كانت من أسرة من أمراء يونان[•]، واسمها مارتا، أو علم شاه خاتون، فوُلد إسماعيل من هذه المرأة اليونانية، وعلى هذا فنسب السلاطين الصفويين يتصل من جهة الأم بالأمراء اليونان في طرابزون"[١].

وبعد موت أوزون حسن، سنة ١٤٧٦م، خلفه ابنه السلطان يعقوب، فاصطدم بحيدر بن جنيد، بسبب أطماعه السياسية ومنظمته العسكرية ومذهبيته الشيعية، فأمره بمغادرة ديار بكر إلى أذربيجان، فخرج منها بمريديه ومنظمته العسكرية، واتخذ لأعضائها زياً خاصاً، وصارت من عهده تعرف باسم منظمة القِزل باش أو الرؤوس الحمراء، لأن أعضاءها كانوا يعتمُّون بعمامة بيضاء ملفوفة حول طربوش أحمر مخروطي اثنتي عشرة لفة، إشارة إلى الأئمة الاثني عشر.

وتوجه حيدر بجيشه إلى شيروان بدلاً من أذربيجان، فاستغاث حاكمها بالسلطان يعقوب، فوجه جيشاً بقيادة سلمان بيك، فتمكن من هزيمة القزل باش وتفريقهم وقتل حيدر بن جنيد، سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م[٢].

•) زوجة حيدر وأم الشاه إسماعيل هي ابنة أوزون حسن، وهو تركي، وعلى ذلك تكون يونانية من جهة أمها.

١) تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الظاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ص٦٤٠.

٢) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٣٥.

وأمر السلطان يعقوب باعتقال أبناء حيدر الثلاثة، علي ميرزا وإبراهيم ميرزا وإسماعيل ميرزا، في قلعة اسطخر، ولكن السلطان يعقوب مات سنة ٨٩٥هـ/١٤٩٠م، وخلفه السلطان رستم، فأطلق سراح أبناء حيدر، ونصَّب علي ميرزا شيخاً على الطريقة الصفوية ورئيساً لمنظمة القِزل باش، لكي يستعين بهم في صراعه مع منافسيه على العرش.

وبعد انتصار رستم واستقراره في العرش، سمح لعلي ميرزا وإخوته وطريقته بالرجوع إلى أردبيل، فتقاطر عليه المريدون، وزادت الطريقة الصفوية زيادة كبيرة، وتضخمت منظمة القِزل باش، فخاف السلطان رستم من منازعتها له، فأمر علي ميرزا بالعودة إلى تبريز، فرفض، واندلع بينهما قتال انتهى بمقتل علي ميرزا سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٤م، فبدأ بذلك الصراع بين دولة آق قويونلو السنية والطريقة الصفوية الشيعية[١].

وبعد المعركة انتقل إبراهيم ميرزا وإسماعيل ميرزا خفية من أردبيل إلى مدينة لاهيجان القريبة منها، حيث بسط حاكمها كاركيا ميرزا، وكان شيعياً، حمايته عليهما، وكان إسماعيل في الثانية عشرة من عمره، فنشأ في كنفه وظل تحت رعايته خمس سنوات، التف حوله خلالها أتباع الطريقة وكثر مريدوها.

وبعد موت السلطان رستم، اندلع نزاع عنيف بين خلفائه، وتوزعت دولته بينهم، فصار كل واحد منهم يحكم مدينة أو بضعة مدن في فارس وأذربيجان، فخرج إسماعيل ميرزا من لاهيجان، مع سبعة من كبار مريديه، وتوجهوا نحو معقلهم في أردبيل، والأتباع والمريدون وأعضاء القِزل باش ينضمون إليهم من كل مكان، ولم يستطيعوا دخول أردبيل، إذ منعهم حاكمها علي بيك، فرحلوا إلى أرزنجان، ثم إلى أرجوان في أذربيجان، وهناك كونوا جيشاً سموه جيش القزل باش، وكان ذلك سنة ٩٠٥م/١٥٠٠م[٢].

وتمكن إسماعيل في السنة نفسها، بجيش من سبعة آلاف مقاتل من القزل باش، من الاستيلاء على شيروان، وقتل حاكمها فرخ يسار وأحرقه، ونهب قبور حكامها، ونهب خزانتها، وأقام هرماً من جماجم أهلها.

---

١) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٣٧.

٢) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٥٠-٥١.

وبعد شيروان استولى إسماعيل بجيشه على باكو، وخضعت له ما حولها من المدن، ثم دخل في مواجهات متعددة مع آلوند ميرزا، سلطان آق قويونلو، انتهت بهزيمته في معركة شرور، سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م، ثم دخل تبريز، فسقطت بذلك دولة آق قويونلو، وبدأ عصر الدولة الصفوية، وكان عمادها وصلب جيشها قبائل القِزِل باش، وهي تسع قبائل: روملو، وشاملو، واستاجلو، وتكة لو، وذو القدر، وأفشار، وقاجار، ورساق، وصوفية قراباغ.

وبعد دخول إسماعيل تبريز:

"توَّجه أعوانه ومريدوه ملكاً على إيران[•]، ولقبوه بأبي المظفر شاه إسماعيل الهادي، سنة ٩٠٧هـ/١٥٠٢م، وأصدروا السكة/العملة باسمه، ويقول أنجيوليلا Angiolella، الذي كان في تبريز عند فتح إسماعيل لها إنه: "قطع أوصال الكثير من الرجال والعلماء والنساء والأطفال، وقبلت كل المدينة علامة القِزِل باش، ووضعوا تاجهم على الرؤوس، وقُتل في هذه المذبحة أكثر من عشرين ألف شخص"، وما إن توج إسماعيل ملكاً حتى أعلن فرض المذهب الشيعي مذهباً رسمياً في مختلف أنحاء إيران/فارس دون مقدمات، وكانت إيران سنية المذهب، وكانت العناصر الشيعية تتركز في مدن مثل كاشان وقم والري ... وبذلك تمكن الشاه إسماعيل من فرض المذهب الشيعي بحد السيف"[١].

واتخذ الشاه إسماعيل من تبريز عاصمة لمملكته، ثم استكمل بسط سلطته على فارس وأذربيجان وأرمينيا، وبعد ذلك ضم إليها خراسان وديار بكر، ثم سواحل الخليج ومناطق من الإحساء وشرق جزيرة العرب، ثم بلاد الأكراد والعراق، ودخل بغداد سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م، فصارت دولته تمتد من الخليج العربي إلى بحر قزوين، فشطر الشاه إسماعيل ودولته الصفوية بذلك عالم الإسلام إلى قسمين، في الوقت الذي كان قد أصاب دولة المماليك الوهن ولم تعد قادرة على صده، وهو الوقت نفسه الذي صار فيه البرتغاليون ورجال منظمة فرسان المسيح يحاصرون عالم الإسلام بالأساطيل، وتوغلوا في الخليج والبحر والأحمر، وجعلوا جزءًا من مشروعهم، كما

•) اسم إيران عبر العصور والممالك التي حكمتها هو فارس، والتحول من فارس إلى إيران حدث في ٢١ مارس ١٩٣٥م، في عهد الشاه رضا بهلوي، الذي أطاح سنة ١٩٢١م بالأسرة القاجارية، التي كانت تحكم فارس منذ سنة ١٧٩٥م.

١) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٥٤-٥٥.

رأيت، التحالف مع الشاه إسماعيل وتوظيف دولته الصفوية الشيعية في إسقاط دول الإسلام السنية، لكي يصلوا هم إلى بلاد اليهودية ويستولوا على أورشليم/القدس ويعيدوا هيكل بني إسرائيل.

وها هنا ظهر آل عثمان.

معركة جالديران:

في شهر ربيع الأول سنة ٩١٨هـ/مايو ١٥١٢م، تنازل السلطان العثماني بيازيد الثاني لابنه سليم عن الحكم، فصار السلطان سليم الأول، الملقب بياوز أو القاطع، وجاءه سفراء مصر والبندقية والمجر وروسيا لتهنئته بالسلطنة، ولم يأته رسول من الشاه إسماعيل، فعد ذلك امتهاناً له[١].

ونشب نزاع بين السلطان سليم الأول وأخيه أحمد الذي كان يرى نفسه أولَى بالسلطنة، فناصر الشاه إسماعيل في النزاع الأمير أحمد، وأعلن أنه سوف يرسل له جيشاً يناصره في نزاعه مع أخيه السلطان سليم ياوز، وآوى مراد بن الأمير أحمد وبقية الأمراء الثائرين على السلطان سليم.

وكان الشاه إسماعيل، منذ عهد السلطان بيازيد الثاني، يعمل على نشر التشيع في أقاليم الدولة العثمانية القريبة من فارس، وعلى بث الفوضى فيها، خصوصاً في الأناضول.

وفي آخر سنة من عهد السلطان بيازيد الثاني، ٩١٧هـ/١٥١١م، قاد شاه قولي، رئيس قبيلة تكة لو، وهي إحدى قبائل القِزِل باش، تمرداً في ولاية تكة إيلي، وهي إحدى الولايات الشرقية للدولة العثمانية، بتحريض من الشاه إسماعيل، فثار في عشرين ألفاً من قبيلته ومن انضم إليهم من الشيعة، وهاجموا منطقة قرامان، وقتلوا حاكمها العثماني قراقوز باشا، ثم هاجموا ولاية سيواس، وفي كل بلد يستولي عليها يجعل الخطبة باسم الشاه إسماعيل، فسيَّر إليه السلطان بيازيد جيشاً بقيادة الصدر الأعظم علي خادم باشا، وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني، وفرار جيش القزل باش إلى فارس، وقُتل في المعركة شاه قولي، واستشهد كذلك الصدر الأعظم علي باشا[٢].

١) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٧٨.

٢) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٧٥-٧٦.

وفي الوقت نفسه حرَّض الشاه إسماعيل حاكم مدينة أرزنجان، نور علي، على نشر المذهب الشيعي في الأناضول، فجمع أربعة آلاف من الشيعة في أقاليم الأناضول، واستولى على بلدة طوقات، ثم أماسيا، وأعلن فيهما الخطبة باسم الشاه إسماعيل، ثم هزم جيشاً عثمانياً أرسله السلطان بيازيد لرده عن الأناضول، وتزايد أتباعه، وظل شوكة في جانب الدولة العثمانية، إلى أن ولي السلطان سليم ياوز.

وفي التاسع عشر من شهر المحرم سنة ٩٢٠هـ/١٦ مارس ١٥١٤م:

"جمع السلطان سليم ياوز رجال الحرب والأدباء والوزراء ورجال الدين، في مدينة أدرنة، وذكر أن الشاه إسماعيل وحكومته الشيعية في إيران/فارس بمثابة خطر كبير على العالم الإسلامي، وأن الجهاد ضد الزنادقة القِزل باش واجب ديني على جميع المسلمين"[١].

وفي يوم ٢٢ محرم ٩٢٠هـ/١٩ مارس ١٥١٤م، تحرك السلطان سليم بجيشه من أدرنة إلى إسلام بول/اسطنبول، ومنها إلى أُسكُدار، ثم اتجه إلى فارس، وفي طريقه إليها، وهو في منطقة أزكميد، كتب رسالة، في ٢٧ صفر ٩٢٠هـ/أبريل ١٥١٤م، إلى الشاه إسماعيل، يقول له فيها:

"لقد تعديت على إمارات البلاد الشرقية، وفتحت أبواب الظلم والجور على طريق المسلمين، وأشعت الفتنة والفساد، وأطلقت مقابح أعمالك ومساوئ أحوالك من نواميس الدين، كإباحة الفروج المحرمة، وإراقة الدماء المكرمة، وتخريب المساجد والمنابر، وإحراق المراقد والمقابر، وإهانة العلماء والسادات، وسببت الشيخين الكريمين/أبي بكر وعمر، لهذا أفتى أئمة الدين والعلماء المهتدين رضوان الله عليهم أجمعين بكفرك وارتدادك، أنت وأتباعك، وأعلنوا أن جزاء هذا كله القتل"[٢].

---

١) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٧٨.

٢) دكتور نايف عيد السهيل: العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران، ص٢٨، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية، كلية الآداب جامعة القاهرة، ذو القعدة ١٤٣٠هـ/ نوفمبر ٢٠٠٢م.

ولم يرد الشاه إسماعيل على السلطان سليم، فواصل الزحف بجيشه حتى اخترق حدود فارس، ووصل إلى أرزنجان، في جمادى الأولى ٩٢٠هـ/يونيو ١٥١٤م، فعسكر في صحراء ياسي جمن بالقرب منها، وأرسل رسالة تهديد أخرى إلى الشاه إسماعيل، ومعها:

"عصا وخرقة وكشكولاً ومسبحة، وكأنه يذكره بأجداده، ويقول له أن يركن إلى هذه الأشياء إن كان خائفاً من الحرب"(١).

ورد الشاه إسماعيل على السلطان سليم برسالة بدأها بتعظيمه والتودد إليه، وعدم رغبته في الحرب، لكي لا تمتلئ الأرض بالفتنة، ولكنه ختم رسالته بالتهكم من السلطان سليم قائلاً:

"وهذه الأقوال عن الإلحاد لا تصدر إلا عن مدمن للأفيون، وإنَّا نعتقد أن كل هذه المهاترات لم يكن لها ضرورة، وقد أرسلنا حُقاً ذهبياً مملوءاً بالمكيف ومختوماً بخاتمنا الهمايوني، وإنا وقت كتابة هذه الرسالة على حدود أصفهان للعيد، وإذا انتهى الأمر بالحرب فلن يكون للتأخير أو التهاون مكان، ولكن فكر فيما تصير إليه الأحداث"(٢).

واستشاط السلطان سليم الأول غضباً، وأدرك أن الشاه إسماعيل أخبره بوجوده في أصفهان جنوب غرب فارس، لأنه يماطله، ويريد تأخير المواجهة حتى يدخل الشتاء فيهلك الجيش العثماني من البرد والجوع، فقرر مواصلة التحرك داخل فارس، ومن جرموك أرسل رسالة ثالثة إلى الشاه إسماعيل، ومعها مجموعة من ملابس النساء وأدوات الزينة، يقول له فيها:

"فإذا انزويت بعد ذلك في زاوية الرعب والهلع، فحرام أن يطلق عليك اسم الرجال، وعليك أن تختار الحجاب بدلاً من السيف، وعباءة النساء بدلاً من الدرع"(٣).

وفي النهاية التقى الجيشان في صحراء جالديران، شمال غرب أذربيجان، في الثاني من رجب سنة ٩٢٠هـ/٢٣ أغسطس ١٥١٤م، وينقل المؤرخ التركي يلماز أوزتونا عن المصادر العثمانية أنه:

---

١) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٨٢.

٢) العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران، ص٢٩.

٣) العلاقات السياسية بين العثمانيين والصفويين منذ قيام الدولة الصفوية حتى معركة جالديران، ص٣٠.

"كان الطرفان متعادلين عدداً، مائة ألف محارب لكل منهما"[1].

بينما ينقل دكتور بديع جمعة ودكتور أحمد الخولي عن المصادر الفارسية أن:

"عدد أفراد الجيش العثماني كان يزيد على المائة ألف، في الوقت الذي لا يزيد فيه عدد أفراد الجيش الصفوي عن عشرين ألفاً"[2].

والفارق الرئيسي بين الجيشين كان في التسليح ونوعية المقاتلين، وليس العدد، يقول يلماز أوزتونا:

"كان تركمان الشاه شيعة متعصبين وفرساناً شجعاناً ومهرة، لا هدف لهم سوى التضحية بأرواحهم في سبيل شاههم، ولم يكن للشاه مدفعية، ولا مشاة من حملة البنادق، أما لدى العثمانية، كانت فرقة مشاة الإنكشارية الثقيلة موجودة مع فرقة المدفعية، وكان الإنكشارية يبلغ عددهم عشرة آلاف، عدا بعض سراياهم، وكذلك وحدات كثيرة من المشاة الخفيفة مجهزين بالبنادق، وكانت فرقة صاعقة الروملي في مقدمة المركز"[3].

وانتهت معركة جالديران بهزيمة جيش الشاه إسماعيل هزيمة نكراء، وسقط الشاه نفسه عن جواده وجُرح، فهرب من ميدان المعركة إلى عاصمته تبريز، ومنها إلى همدان، ثم إلى أذربيجان.

وفي يوم ٦ رجب ٩٢٠هـ/٦ سبتمبر ١٥١٤م، دخل السلطان سليم الأول تبريز عاصمة الدولة الصفوية، فخرج علماء السنة والأعيان لاستقباله، وأعاد الشعائر السنية، وصارت خطبة الجمعة باسمه.

ورغم أن معركة جالديران لم تقض على الدولة الصفوية، بل ظلت قائمة وظل الصراع بينها وبين الدولة العثمانية سائراً عبر القرون، إلا أنها غيرت موازين القوى في الشرق، والتي كانت

---

١) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٢١٦.

٢) تاريخ الصفويين وحضارتهم، ص٨٣.

٣) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٢١٧.

مائلة في اتجاه الشاه إسماعيل ودولته، وقلصت حدود الدولة الصفوية، وعدلت خطوط المواجهة بينها وبين الدولة العثمانية، ولم يعد في مقدورها التوسع غرباً.

فعقب معركة جالديران ثار رؤساء الأكراد، وهم سنة، على الحاكم الفارسي، وطلبوا الانضمام إلى الدولة العثمانية، وأعلنت خمس وعشرون مدينة ولاءها للدولة العثمانية، رغم وجود استحكامات عسكرية صفوية فيها، وكان أهم هذه المدن ديار بكر وماردين والرقة وأرزنجان، وصارت بلاد الأكراد كلها جزءًا من الدولة العثمانية، بعد أن كانت تابعة للدولة الصفوية.

وكذلك أعلن حاكم العراق ولاءه للسلطان سليم الأول، وأصدر السلطان مرسوماً بذلك، وضم العثمانيون الأجزاء الشرقية والجنوبية من الأناضول، بعد أن كانت في حوزة الشاه، فصارت الأناضول كلها في يدهم، ما عدا الجزء التابع للمماليك.

وسيطرت الدولة العثمانية على طرق التجارة في الشرق، خصوصاً طريق الحرير.

ومن أكبر نتائج معركة جالديران وأهمها، سقوط هيبة الشاه إسماعيل وقداسته عند أتباعه من القِزل باش، إذ لم يخسر معركة قبلها، وكان القزل باش يعتقدون قداسته وأنه لا يُهزم لأن الإله يتجلى فيه، ولم يعد الشاه بعد المعركة كما كان قبلها، فقد صار حزيناً مكتئباً منزوياً، وأقبل على شرب الخمر، إلى أن مات سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م.

توحيد عالم الإسلام

قبل أن يبدأ السلطان سليم الأول حملته على الشاه إسماعيل، أرسل سفارة إلى السلطان قنصوة الغوري يطلب منه التحالف معه للقضاء على دولة الصفويين، فاعتذر السلطان الغوري، وآثر الحياد.

وإبان زحف السلطان سليم الأول على فارس، عسكر في قونية، وأرسل إلى علاء الدولة ذي القدر، حاكم إمارة ذي القدر، التي تمتد في وادي طوروس، بين مدن البستان ومرعش وخربوت، وتتاخم فارس والدولة الصفوية، يطلب منه التعاون معه في قتال الصفويين وإمداد جيشه بالمؤن، وكان علاء الدولة موالياً للمماليك، فرفض طلب السلطان سليم الأول بتحريض من السلطان الغوري، وزاد علاء الدولة على ذلك أن قام بمهاجمة قوافل المؤن والذخيرة في ساقة الجيش العثماني.

وبعد انتهاء معركة جالديران أرسل السلطان سليم جيشاً بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا، إلى علاء الدولة، فهزمه وقُتل علاء الدولة في المعركة، هو وأبناؤه، ونصَّب السلطان سليم مكانه علي بن شهسوار، وصارت إمارة ذي القدر جزءًا من الدولة العثمانية وحدودها الشرقية، فضُربت فيه السكة باسم السلطان العثماني، وأصبحت خطبة الجمعة باسمه[1].

فتح مصر والشام:

وفي يوم ٧ ربيع الأول ٩٢٢هـ/١٠ أبريل ١٥١٦م أعلن السلطان سليم الأول أنه ذاهب إلى الديار الشرقية/فارس، لمحاربة القِزل باش والقضاء عليهم، ولكنه كان عازماً على التوجه لقتال السلطان الغوري، وفي يوم ٢٥ ربيع الآخر أرسل جيشاً بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا، فسار حتى وصل إلى قيصرية في وسط الأناضول، فعسكر فيها حسب أوامر السلطان، وهي مفترق الطرق بين التوجه لفارس أو إلى الشام.

---

١) دكتور أحمد فؤاد متولي: الفتح العثماني لمصر والشام ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، ص٧٥، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٥م.

وفي يوم ٤ جمادى الأولى ٩٢٢هـ/٥ يونيو ١٥١٦م، تحرك السلطان سليم نفسه بجيشه من اسطنبول، وأبحر الأسطول العثماني متجهاً إلى شواطئ الشام.

وكان السلطان الغوري قد أدرك بعد مقتل علاء الدولة وضم السلطان سليم لإمارته إلى الدولة العثمانية، ومن الرسائل المتبادلة بينه وبين السلطان سليم، أن الحرب واقعة بينهما، فخرج بجيشه من مصر في ١٥ ربيع الآخر ٩٢٢هـ/١٨ مايو ١٥١٦م، متوجهاً إلى الشام، وقد أعلن أنها حملة لتفقد أحواله وحصونه، فمر بدمشق، ووصل إلى حلب يوم ١٠ جمادى الثانية/١١ يوليو، وعامل جنوده أهلها بقسوة.

وها هنا أرسل أبو البقاء شمس الدين، نائباً عن قضاة المذاهب الأربعة في حلب وسبعة عشر من أعيانها، رسالة إلى السلطان سليم الأول، توقن منها بما أخبرناك به سابقاً، وهو أن لعالم الإسلام مساراً، وأن المهمة الأولى لدول الإسلام جميعها هي حفظ هذا المسار والقوامة عليه، فإذا خرجت دولة عن المسار، أو ضعفت ولم تعد لديها القدرة على حفظه والحفاظ على بلاد الإسلام، فقدت أساس شرعيتها ومبرر وجودها، ليحل محلها من هو أولى منها بالقوامة على المسار وأقدر على حفظ بلاد الإسلام.

فهاك رسالة علماء حلب وأعيانها للسلطان سليم الأول، وقد سجل أبو البقاء شمس الدين في بدايتها أسماءهم، وأورد نصها دكتور أحمد فؤاد متولي، أستاذ التاريخ والآداب التركية بجامعة عين شمس، في كتابه: الفتح العثماني لمصر والشام ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له:

"لا تشغلوا بالكم بحلب، إن تتفضلوا أسلم لكم الجراكسة يا صاحب دولتي، أو أتعهد أن يقف جميع عبيدكم أهل حلب ضد حضرة السلطان الغوري عندما يهاجم عينتاب قبل مجيء التركمان/العثمانيين، إن تخليصنا من الجراكسة بمثابة تخليص لنا من يد الكفار، ليكن معلوماً لدى سلطاني ما يلي: عدم تخطي الشريعة أصلاً، فكل شئ يسري على الخواص أيضاً، ولا يؤخذ

ظلماً من شخص ما يملكه من مال أو أهل أو عيال على الإطلاق، نهب أنفسنا للسلطان صاحب الدولة فور مجيئه، وليأت الوزير ليمنح أهلنا وعيالنا الأمان"(١).

وفي يوم ٢٥ رجب ٩٢٢هـ/٢٤ أغسطس ١٥١٦م التقى الجيشان في مرج دابق قرب حلب، وانتهت المعركة بانتصار الجيش العثماني، وقُتل السلطان الغوري، ودخل السلطان سليم الأول مدن الشام، حلب وحمص وحماة ودمشق، فاستقبل أعيانها وعلماءها وأكرمهم، ورغم حدة طبعه، وشراسته الشديدة في القتال، وبطشه العنيف بأعدائه وخصومه، كان من سيرة السلطان سليم الأول ألا يتعرض للبلاد التي يفتحها بتخريب، ولا لأهلها بأذى، وكان يحب صلاح الدين الأيوبي ويبجله ويتأسى به، فأمر بعمارة المساجد وضبط الأسواق وعدم تعرض الجند للأهالي، وحين دخل حلب:

"أقام السلطان سليم الجمعة في جامع الملك الظاهر بيبرس، ووصفه الخطيب في خطبته بأنه: مالك الحرمين الشريفين، فنهض من مكانه واقفاً، وقال: من أنا حتى أكون مالكاً للحرمين، إنني أفتخر بأني خادم الحرمين لا مالكهما"(٢).

وبعد وصول نبأ موت السلطان الغوري إلى القاهرة، اختار المماليك طومان باي خلفاً له، وكان نائبه، فأرسل إليه السلطان سليم الأول، يعرض عليه الصلح في مقابل الإقرار بالسيادة العثمانية على مصر، فرفض طومان باي، وقتل رسل السلطان سليم، فقرر السلطان مواصلة السير بجيشه وعبور سيناء إلى مصر.

وفي يوم ٢٩ من ذي الحجة ٩٢٢هـ/٢٢ يناير ١٥١٧م، التقى جيش سليم الأول بجيش المماليك بقيادة طومان باي في الريدانية، وانتهت المعركة بهزيمة المماليك، وفي يوم ٢٣ محرم ٩٢٣هـ/١٥ فبراير ١٥١٧م، دخل السلطان سليم القاهرة، وفي يوم ٢٨ محرم/٢٠ فبراير صلى الجمعة في جامع المؤيد، وإبان الخطبة:

"لقبه الخطيب بخادم الحرمين الشريفين، فنزع السلطان عمامته وقلب سجادته، وسجد على الأرض شكراً لله تعالى على هذه النعمة الجليلة، وبكى إلى أن نزل الخطيب من المنبر"(١).

---

١) الفتح العثماني لمصر والشام من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، ص١٣٥-١٣٦.

٢) الفتح العثماني لمصر والشام من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، ص١٧١-١٧٢.

وأثناء وجود السلطان سليم في القاهرة، أرسل إليه شريف مكة أبو البركات محمد رفعت ابنه الشريف أبا الحسني، ومعه مشايخ طوائف العرب والأعراب، يعلنون دخولهم في طاعته، ثم أرسل إليه الشريف ابنه الأكبر محمد أبا نمي، يطلب إبقاءه في حكم مكة، وفي يوم ١٦ جمادى الثانية ٩٢٣هـ/٦ يوليو ١٥١٧م، استقبل السلطان سليم محمد أبا نمي استقبالاً حافلاً، وسلمه الشريف مفاتيح مكة والمدينة، والأمانات النبوية التي كان يحفظها الأشراف فيهما، وأهمها بيرق سعادت/راية النبي، وخرقة سعادت/البردة النبوي، ونعلا النبي، وسيفه، فأرسلها السلطان سليم، وحُفظت في جناح خرقة شريف، الذي شُيد خصيصاً من أجلها في سراي طوب قابو، في اسطنبول، وما زالت هذه الأمانات محفوظة فيه إلى الآن، وقد صار اسمه جناح الأمانات المقدسة[٢].

وهكذا تم ضم الشام ومصر وشمال السودان والحجاز واليمن وشمال إفريقيا حتى تونس إلى الدولة العثمانية، وصار السلطان سليم الأول أول الخلفاء على أمة الإسلام من آل عثمان، وهو تاسع سلاطين آل عثمان، وخليفة النبي الرابع والسبعون على دولة الإسلام، وفي الحفاظ على مسارها.

وبتوحيد بلاد الإسلام تحقق مشروع السلطان سليم الأول، والذي كان هدفه الحقيقي من حروبه، ومن اتجاهه نحو دولة المماليك، كما يقول المؤرخ التركي يلماز أوزتونا:

"كانت الفكرة في حملة ياوز على مصر، أنها تمثل أهم مرحلة من مراحل أفكاره الأساسية في تكوين الاتحاد الإسلامي: اتحاد إسلام، ذلك أنه كان يرى أن مماليك مصر لم يقدروا، ولن يقدروا على تحقيق هذا الهدف، وكان السلطان سليم مقتنعاً بأن العثمانية سوف توفق إلى تحقيق هذا الهدف"[٣].

وما يؤكد صحة ما قاله يلماز أوزتونا، وأن غاية السلطان سليم الأول الحقيقية التي كانت تُلح عليه، ليست مجرد غزو البلدان أو إسقاط الدول، بل توحيد بلاد الإسلام في مواجهة الدولة

---

١) الفتح العثماني لمصر والشام من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، ص٢٠٣.

٢) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٢٣٣-٢٣٤.

٣) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٢٢٣.

الصفوية في فارس وسعيها للتمدد خارجها، وفي مواجهة الدول الأوروبية التي تحاول التسلل إلى البحر المتوسط من الشمال، والبرتغال التي سيطرت فعلاً على المحيط الهندي وأغلقت طرق الحج والتجارة الإسلامية وصارت تحاصر بلاد الإسلام من الجنوب، ما يؤكد صحة ذلك أن السلطان سليم الأول أبقى من سالموه من الأمراء والحكام على دولهم، ولم يشترط عليهم شيئاً سوى أن تكون الخطبة وسك العملة باسمه.

وبعد معركة الريدانية، اختبأ طومان باي عند بعض مشايخ العربان، وبعد اعتقاله استقبله السلطان سليم ودار بينهما حوار طويل، واجه فيه طومان باي السلطان سليم بشجاعة وكبرياء، وقارعه الحجة بالحجة، فأعجب به السلطان سليم الأول وقال له:

"والله ما كان قصدي أذيتك، ونويت الرجوع من حلب، ولو أطعتني من الأول وجعلت السكة والخطبة باسمي ما جئت لك، ولا دست أرضك"(١).

البحر المتوسط بحيرة إسلامية:

وعند فتح السلطان سليم الأول لمصر ووراثة الدولة العثمانية لدولة المماليك، التي كنت تمتد غرباً حتى نهاية إقليم برقة في ليبيا، كانت تونس يحكمها بنو حفص، وكانت صقلية القريبة منها وتواجهها في البحر المتوسط تتبع مملكة قشتالة في إسبانيا، ولذا كان بنو حفص يوالون الإسبان، وتحت تهديد أسطولهم في البحر المتوسط.

وغرب الجزائر كان يحكمها بنو زيان، وعاصمتهم تلمسان، وكان سلاطينها ضعفاء، ويصل كل منهم إلى العرش بتدبير المكائد والدسائس لسابقه، والمنطقة من غرب الجزائر حتى المحيط الأطلنطي، كان تسودها مملكة فاس التي يحكمها بنو مرين، وهم في نزاع دائم مع الدولة السعدية، وجميعها دول ضعيفة ولم تكن لها القدرة على مواجهة إسبانيا التي تتسلط أساطيلها على سواحل المتوسط الإفريقية، وهي دائمة الإغارة عليها.

وفي سنة ١٥٠٥م، تمكن أسطول إسباني، بقيادة دي رايموند De Rymond، من الاستيلاء على مدينة المرسى الكبير، غرب الجزائر، ثم في سنة ١٥٠٩م، قاد الكاردينال فرانسيسكو خمنيز

---

١) الفتح العثماني لمصر والشام من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، ص٢٢٤.

دي سِسنيروس Francisco Jiménez de Cisneros أسطولاً كبيراً من إسبانيا، ومعه خمسة عشر ألف جندي، فرسا في ميناء المرسى الكبير قرب وهران، ثم تمكن قائد قواته بدرو نافارو Pedro Navarro من احتلال وهران، وهي أكبر مواني غرب البحر المتوسط، فنهبها وقتل أربعة آلاف من أهلها، وأسر ثمانية آلاف آخرين وساقهم عبيداً لإسبانيا.

وبعد احتلال الإسبان لوهران صالح أبو حمو الثالث، سلطان بني زيان في تلمسان، الكاردينال خمنيز على أن يُقر بتبعيته لإسبانيا، ويدفع جزية سنوية، قدرها ١٢ ألف دوقا ذهبية، و١٢ ألف فرس من أجود الخيول.

وفي شهر يناير ١٥١٠م، قاد بدرو نفارو أسطولاً من عشرين سفينة وعشرة آلاف جندي، ومعه مدافع كبيرة، من جزر البليار، وتمكن من احتلال مدينة بجاية وميناءها على البحر المتوسط، شرق الجزائر، بعد مقاومة مجيدة من أهلها، بأسلحتهم الخفيفة، وفي السنة نفسها احتلوا ميناء عنابة، شرق بجاية[1].

وبعد احتلال بجاية القريبة من تونس، أعلن أبو عبد الله محمد المتوكل، سلطان الدولة الحفصية في تونس وشرق الجزائر، ولاءه لإسبانيا، ووقع معهم اتفاقية كالتي وقعها سلطان بني زيان في تلمسان.

وبعد استيلاء الإسبان على المرسى الكبير ووهران في غربها، وبجاية وعنابة في شرقها، ساد الهلع في مدينة الجزائر، وكانت تابعة لبجاية، ويحكمها الشيخ سالم التومي، فقاد الشيخ سالم، بعد أيام من سقوط بجاية، وفداً من أشراف الجزائر إلى بجاية، والتقى بدرو نافارو، وصالحه على إعلان تبعيته لإسبانيا، وأن يدفع لها ما كان يدفعه لسلطان بجاية.

وفي سنة ١٥١١م، ذهب الشيخ سالم التومي في وفد إلى إسبانيا، وبعد مفاوضات وضغوط، وافق على أن يسلم الإسبان أكبر جزيرة أمام شاطئ مدينة الجزائر، وعلى بعد ثلاثمائة متر فقط

١) المؤرخ أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا ١٤٩٢م-١٧٩٢م، ص١٢٠-١٢١، ١٤١، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تم سحب الكتاب على مطابع دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ١٩٦٥م.

منها، فأقام فيها الإسبان قلعة سموها صخرة الجزائر Penon d'Argel، ونصبوا فيها مدافعهم، فصارت مدينة الجزائر تحت تهديد الإسبان الدائم[١].

وفي سنة ١٥١١م احتل الإسبان مواني مستغانم وشرشال، فتحولت سواحل الجزائر كلها من عنابة وبجاية إلى وهران والمرسى الكبير إلى مستعمرة إسبانية، مقرها وقاعدة حكمها في وهران، وسيطر الإسبان على شواطئ البحر المتوسط الإفريقية، وعلى حركة السفن والتجارة في البحر المتوسط، من تونس شرقاً إلى تخوم مملكة فاس غرباً.

ومملكة فاس نفسها، كانت تحت تهديد البرتغاليين، وقد تمكنوا في عهد الأمير هنري الملاح، كما علمتَ من قبل، من انتزاع سبتة التي تشرف على مضيق جبل طارق من المغرب، ثم انتزعوا مدينة مازاجان سنة ١٥٠٢م، ومدينة أزمور سنة ١٥٠٨م، وكلتاهما تطل على المحيط الأطلنطي، وأقاموا قلعة بكل منهما.

وكانت استراتيجية الإسبان تقوم على مرحلتين، الأولى هى احتلال المدن الساحلية وموانى البحر المتوسط، من أجل تحويلها إلى قواعد للأساطيل وتمركز القوات، والسيطرة منها على شواطئ البحر المتوسط وحركة التجارة فيه، وفي الوقت نفسه إبعاد المسلمين عن سواحل المتوسط وحصرهم في الداخل، وهي المرحلة التي تمكنوا من إنجازها فعلاً.

وكانت الخطوة التالية هي الزحف من قواعدهم في مناطق الشواطئ ومدن المتوسط الساحلية، إلى الداخل لإخضاع الممالك المسلمة، والتي تمتد جنوب الصحراء حتى أواسط إفريقيا، وهي المرحلة التي أجهضها، وأجهض مشروع الإسبان كله، فتح الدولة العثمانية لمصر، ثم حملاتها البحرية في مواجهة الأساطيل الإسبانية.

وإبان فتح السلطان سليم الأول لمصر، وفي السنوات التي تلتها، أذن السلطان الحفصي أبو عبد الله المتوكل للأخوين عروج وخير الدين بربروسا بالرسو بأسطولهم في ميناء حلق الوادي في تونس، فحرروا ميناء جيجل في الجزائر، واتخذوها مقراً لأسطولهم وقواتهم، ثم حرروا بجاية، فالجزائر وشرشال، وضموا تلمسان، ثم حرروا وهران.

---

١) حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا ١٤٩٢م-١٧٩٢م، ص١٢٦-١٢٧.

وفي سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م، صارت الجزائر إيالة/ولاية عثمانية، وصار خير الدين بربروسا أول الولاة عليها، فاستكمل طرد الإسبان من شمال إفريقيا، وأوقع هزائم ساحقة بالأساطيل الإسبانية، فأخرجها من البحر المتوسط وحرره منها، فصار البحر المتوسط بحيرة إسلامية مغلقة.

وقصة عروج وخير الدين بربروسا، وفتحهما لشمال إفريقيا، وطرد الإسبان من البحر المتوسط، قصة شائقة وحافلة بالأحداث المثيرة، غير أن موضعها ليس في الكتاب الذي بين يديك، لأن ميدانها في الغرب، وهو عن المواجهات في بحار الشرق.

فتح العراق والوصول إلى الخليج:

في سنة ١٥٢٩م، وإبان حملة السلطان سليمان القانوني على المجر والنمسا، وحصار فيينا، انتهز الشاه طهماسب الصفوي انشغال السلطان والجيوش العثمانية في أوروبا، وشن حملة على بغداد، فقتل واليها ذا الفقار خان، وكان قد أعلن ولاءه للدولة العثمانية، وأرسل مفاتيح بغداد للسلطان سليمان القانوني، وجعل الخطبة والسكة باسمه، ثم استولى الشاه طهماسب على مدن العراق جميعها، وأعلن سيف الدين أوغلو تكة لو حاكماً على بغداد.

وفي سنة ١٥٣٢م، تمكن الشاه طهماسب من استمالة شرف خان، والي إقطاعية بتليس شرق الأناضول، وهي تابعة للدولة العثمانية، وعندما وصلت أخباره إلى السلطان سليمان القانوني أمر بتحويل بتليس إلى إمارة، وتنصيب عُلَما خان أميراً عليها، فلجأ شرف خان إلى الشاه طهماسب، فقدم في جيش مسلحاً بالمدافع، واستولى على بتليس، وعلى مدن أخلاط وموش، ونصَّب شرف خان أميراً عليها(١).

وكانت بحيرة وان شرق الأناضول، وهي منطقة استراتيجية، ما زالت في حوزة الشاه، فأرسل السلطان سليمان القانوني جيشاً بقيادة الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا، فوصل حلب في شهر ديسمبر ١٥٣٣م، وقضى الشتاء فيها، وإبان ذلك أعلنت مدن أخلاط وعادل جواز وأرجش ووان اعترافها بالسيادة العثمانية وولاءها لها، فخرج الصفويون بذلك من منطقة بحيرة وان.

---

١) دكتور فريدون أمجان: سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص١٤٩، ١٥١-١٥٢، ترجمة: دكتور جمال فاروق، أحمد كمال، دار النيل للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٣٧هـ/٢٠١٥م.

وفي شهر مايو ١٥٣٤م، وبعد أن حشد الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا الجيوش في مدينة آمد، في ديار بكر، اتجه إلى فارس، ولما علم الشاه طهماسب، قرر عدم الدخول في مواجهة مع الجيش العثماني، فترك تبريز، وكان العثمانيون قد أخلوها بعد فتحها في عهد السلطان سليم الأول، ونقل الشاه عاصمته إلى مدينة قزوين، ودخل الصدر الأعظم تبريز، فكان هذا هو الفتح العثماني الثاني لها، ثم دخل إلى أذربيجان واستولى على مدنها وقلاعها، ونصَّب عليها ولاة عثمانيين.

وفي شهر ذي القعدة ٩٤٠هـ/يونيو ١٥٣٤م، تحرك السلطان سليمان القانوني نفسه من اسطنبول، ودخل تبريز يوم ١٩ ربيع الأول ٩٤١هـ/ ٢٨ سبتمبر ١٥٣٤م، وبعد أن اتحد بجيش الصدر الأعظم فتح مدينة سلطانية وعدة مدن أخرى في فارس، دون أن يجد مواجهة من الشاه طهماسب الذي اختفى بجيشه وأتباعه، بعد أن قام بتخريب الطرق التي تمر بها الجيوش العثمانية.

ومن فارس:

"اتجه الصدر الأعظم مقبول إبراهيم باشا بجيشه إلى العراق، فوصل بغداد يوم ٢١ جمادى الأولى ٩٤١هـ/ ٢٨ أكتوبر ١٥٣٤م، فوجد حاكمها الصفوي محمد خان تكة لو قد أخلاها وغادرها، وفتح أهلها أبوابها لاستقباله، ورُفع العلم العثماني على جميع أبواب المدينة، وبعد يومين دخل السلطان سليمان المدينة، فتوجه مباشرة إلى مكان يسمى عزيمية، الذي يوجد به قبر الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، وهنا سلم مسؤول حمل الراية مفاتيح بغداد إلى السلطان سليمان"(١).

ومكث السلطان سليمان القانوني في بغداد أربعة أشهر، نظم خلالها شؤونها، واستكمل فتح مدن وسط العراق وجنوبه، وضم البصرة والمشعشع والقطيف والبحرين، وكلف بإحصاء سكان هذه المناطق وتحرير وثائق رسمية لها، تحت إشراف جلال زاده مصطفى شلبي، ثم:

---

١) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص١٧٥.

"تأسست إيالة البصرة، وارتبطت بها مناطق جنوب العراق، والكويت، والإحساء، والقطيف، ونجد، وقطر، والبحرين، وعمان، وجبل شمر، وهكذا تحقق انتشار عثماني واسع على خليج البصرة"[1].

وهكذا وصلت الدولة العثمانية إلى الخليج من رأسه، وصارت لها مراكز في أعلاه.

---

١) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٤٣.

دولة آل عثمان في مواجهة البرتغال

في البحر الأحمر:

بعد توحيد عالم الإسلام، كان أمام الدولة العثمانية عدة جبهات ومواجهات، وإحداها ومن أهمها مواجهة البرتغاليين وإجلاؤهم عن المحيط الهندي، وتحرير الخليج والبحر الأحمر من سطوة أساطيلهم، وفتح طرق الحج والتجارة، وهي مهمة بدأتها الدولة العثمانية واشتركت فيها مع دولة المماليك، منذ عهد السلطان بيازيد الثاني، قبل فتح مصر وتوحيد عالم الإسلام، وكانت في ذهن السلطان سليم الأول وهو يفتح مصر، وبدأها قبل أن يغادر القاهرة، ثم استكملها ابنه السلطان سليمان القانوني وخلفاؤه من بعده.

يقول المؤرخ التركي يلماز أوزتونا، في كتابه: تاريخ الدولة العثمانية، إنه عندما كان السلطان قنصوة الغوري يجهز أسطوله، لكي يرسله إلى الهند، من أجل مواجهة البرتغاليين، قبل معركة ديو البحرية، سنة ١٥٠٩م:

"أرسل بيازيد الثاني إلى مصر كمال رئيس مع ٣٠٠ مدفع، و١٥٠ عموداً لربط الأشرعة، والأخشاب والزفت والفؤوس، وأهدى ٨ سفن حربية إلى المماليك، وأمر كمال رئيس الفنيين الذين تركهم في مصر بصنع ٣٠ سفن حربية في السويس، ولأن هذه القوة سوف تقوم بحماية التجارة الإسلامية في البحر الأحمر وخارجه في مواجهة البرتغاليين، فإن خدماتها سوف لا تقتصر على المماليك فحسب، بل ستتعداها إلى خدمة العثمانية والعالم الإسلامي بأسره، وأرسل بيازيد كذلك أحمد أوغلو، ثم حامد رئيس، مع كمية كبيرة من المهمات لخدمة المملوكية وإصلاح الأسطول المصري، وعندما أراد المماليك دفع ثمن المهمات، رفض قائلاً: إن هذه قضية الإسلام المشتركة ضد الكفر"[١].

وبعد فتح السلطان سليم الأول لمصر، عيَّن سلمان رئيس قبودان/قبطان السويس، وصار مسؤولاً عن البحر الأحمر وجميع البحار المتصلة به، وكان تابعاً لوالي مصر من الجهة المالية، وتابعاً للديوان الذي يرأسه السلطان في اسطنبول من جهة الشؤون العسكرية والحربية.

---

١) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٤.

ولأن القوة الرئيسية للأساطيل العثمانية كانت في البحر المتوسط، ولا توجد ممرات مائية لنقلها إلى البحر الأحمر، أمر السلطان سليم الأول بتوسيع ترسانة بناء السفن المصرية في السويس، وبناء سفن حربية جديدة، وتجهيزها للاشتراك في الحملات البحرية، وصار الأسطول المصري يعرف بأسطول السويس وأسطول البحر الأحمر، وبعد امتداد نشاطه إلى بحر العرب والمحيط الهندي، صار اسمه الرسمي أسطول الهند[1].

وفي سنة ١٥٢٣م، في عهد السلطان سليمان القانوني، الذي ولي الخلافة والسلطنة بعد وفاة أبيه السلطان سليم الأول، سنة ١٥٢٠م، أبحر سلمان رئيس، قبطان السويس، بأسطوله في اتجاه مضيق البحر الأحمر/باب المندب:

"وكان البرتغاليون قد احتلوا جزر كمران المواجهة لليمن، فأخرج سلمان رئيس البرتغاليين من هذه الجزر ومن البحر الأحمر، واشترك في هذه الحملة ٤٠٠٠ جندي مشاة عثماني بقيادة خير الدين حمزة بك، وأسس سلمان قاعدة بحرية في جزر كمران، وعين لحمايتها خوجة صفر رئيس، وفي سنة ١٥٢٧م أسس سلمان رئيس الحكم العثماني في الجزء الأكبر من اليمن ... وعُين سيدي علي رئيس والياً على اليمن، وأصبح أحمد بك بن سلمان رئيس معاوناً له، أي أنه عُين لهذا المقام شخصين بحريَيْن، ويظهر بوضوح أن الديوان الهمايوني/السلطاني لم يكن يشغله فتح اليمن، وإنما كان يشغله تسلط الأساطيل البرتغالية على البحر الأحمر"[2].

وفي سنة ١٥٢٥م، تحرك سلمان رئيس من السويس على رأس أسطول إلى اليمن، ثم قام برحلة اسكشافية بحرية، ثم:

"كتب تقريراً يتناول أحوال المواني المطلة على البحر الأحمر، والقلاع التي أنشأها البرتغاليون في الهند، والأوضاع التجارية لعدد من المدن، مثل سومطرة الإندونيسية، وملقا الماليزية"[3].

---

١) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٥.

٢) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٥.

٣) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص٢٢٦.

وفي أواخر سنة ١٥٢٧م، أرسل لوبو فاز Lopo Vaz، نائب ملك البرتغال في الهند، أسطولاً حربياً من عشرين سفينة، بقيادة أنتونيو دي ميراندا Antonio de Miranda، لفتح مضيق البحر الأحمر، فلم يستطع العبور منه، ورده الأسطول العثماني في كمران.

وبذلك سيطرت الدولة العثمانية على المضيق ومدخل البحر الأحمر، وأغلقته في وجه أساطيل البرتغال ومنظمة فرسان المسيح، وبقيت فيه ثغرة واحدة، هي ميناء مصوع وميناء سواكن، التي تسيطر عليها مملكة الحبشة المتحالفة مع البرتغال.

وفي شهر ديسمبر ١٥٣٠م، جاء مصطفى بك ومعه خوجة صفر رئيس في قوة بحرية إلى ميناء الشحر، في بحر العرب، فأعطى الأمير بدر مائة من جنود البحر ومدافع، وحذره من قبول البرتغاليين بأمر خليفة الأرض/سليمان القانوني، وغادر مصطفى بك الشحر وترك فيها خوجة صفر رئيس، وجاء البرتغاليون إلى الشحر، ولكن صفر رئيس ردهم(١).

وفي بداية شهر يناير سنة ١٥٤١م، أبحر استيفاو دا جاما Estevão da Gama، نائب ملك البرتغال وحاكم الهند، من جوا، في أسطول من ثمانين سفينة، وكان هدفه اختراق البحر الأحمر والوصول إلى السويس وتدمير الأسطول العثماني والترسانة المصرية فيها، فوصل جزيرة سُقطرى بعد ثلاثة عشر يوماً، ولحق به فيها أسطول آخر بقيادة أنريك منديس دي فاسكونسيلوز Anrique Mendes de Vasconcelos، وتمكن الأسطول البرتغالي من عبور المضيق والوصول إلى مصوع، ومنها إلى سواكن، على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، في مملكة الحبشة، ثم رسا أمام القُصير في يوم ١٤ أبريل ١٥٤١م، فأمر ستيفاو دا جاما بنهب المدينة ونقل ما يمكن نقله إلى السفن البرتغالية، ثم أمر بإحراقها(٢).

وواصل الأسطول البرتغالي الإبحار في اتجاه السويس، فواجهته قوة عثمانية كبيرة أطلقت عليه نيراناً كثيفة، فاضطر استيفاو دا جاما إلى الانسحاب، والعودة إلى القصير، ومنها إلى سواكن، ثم مصوع، وفي طريق عودته إلى الهند:

---

١) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٦.

2) The Portuguese In India, Vol.I, P448-449.

"حاول دخول عدن، في ٢٥ يوليو ١٥٤١م، فأطلقت عليه حاميتها العثمانية مدافعها، ومُني بخسائر جسيمة، وتمكن من عبورها بصعوبة بالغة Very Severe Passage، وفقد استيفاو دا جاما في حملته الفاشلة على السويس عشرات السفن، ومئات الضباط والجنود والبحارة"(١).

وفي شهر فبراير ١٥٤٢م، أرسل استيفاو دا جاما أسطولاً صغيراً من خمس سفن، بقيادة أنريك منديس دي فاسكونسيلوز، للبحث عن كريستفاو دا جاما Christevão da Gama، وهو أخوه الأصغر، وكان قائداً لجزء من سفن الأسطول، وأنزله استيفاو دا جاما مع قوة برتغالية في مصوع، لمعاونة مملكة الحبشة، ثم فُقد وانقطعت أخباره.

ومرة أخرى:

"دخل فاسكونسيلوز إلى البحر الأحمر، ووصل إلى مصوع وسواكن، ثم إلى جدة، فعلم أن أسطولاً كبيراً من مائة وعشرين سفينة، وعليها مدافع هائلة، يقوم على حراسة ميناء جدة، فعاد أدراجه إلى الهند"(٢).

ورغم أن الأساطيل البرتغالية لم تستطع التسلل إلى البحر الأحمر بعد هذه المرة، إلا أنها ظلت تظهر في خليج عدن وخارج مضيق البحر الأحمر، وتهدد سفن الحج والتجارة الإسلامية، إلى أن عزلت الدولة العثمانية مملكة الحبشة عن البحر الأحمر، وفتحت مصوع وسواكن، فصار البحر الأحمر بحيرة إسلامية مغلقة.

في الحبشة ومنابع النيل:

في الفصل الذي خصصه للحملات العثمانية في منطقة القرن الإفريقي، من كتابه: عصر الكشوف العثمانية The Ottoman Age of Exploration، يقول المؤرخ جيانكارلو كاسالي Giancarlo Casale، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة مينسوتا الأمريكية، إن:

"أحمد جران المجاهد، أمير زيلع، تمكن في ثلاثينيات القرن السادس عشر، بمساعدة سليمان باشا الخادم والي مصر، والمدافع والأسلحة التي أمده بها، من تجميع القوى المسلمة،

---

1) The Portuguese In India, Vol.I, P449-450
2) The Portuguese In India, Vol.I, P452.)

وإنـزال عـدة هـزائم بمملكـة الحبشـة، وانتـزع مـن ملكهـا لِبنـا دِنجـل Lebna Dengel بعـض المنـاطق فـي أطرافهـا، فأرسـل لبنـا دنجـل رسـالة مـع مستشـاره البرتغـالي خـواو برمـودز João Bermudez، إلى ملك البرتغال خواو الثالث، يعرض عليه اعترافه بسلطة البابا الكاثوليكي في روما، في مقابل أن تساعده البرتغال على صد القوات المسلمة عن بلاده، فوافق ملك البرتغال، وإحدى أهداف حملة استيفاو دا جاما سنة ١٥٤١م، كانت إنزال مدافع وطوابير مشاة برتغاليـة مسلحة بالبنادق في مصوع، لمساعدة لبنا دنجل فـي حربـه فـي المنـاطق الداخليـة مـن مملكتـه، وكـان لبنـا دنجـل قـد مـات سـنة ١٥٤٠م، فتسـلم السـلاح والقـوات خلفـه وابنـه جلاوديـوز Glawdewos"[١].

وتمكن جلاوديوز، بمساعدة المدافع والقوة البرتغالية، التي كان يقودها كريستفاو دا جاما، من هزيمة أحمد جران، واستولى على بعض الأقاليم التابعة له.

ولما وصل النبأ إلى سليمان باشا الخادم في مصر، أرسل بعدها بعدة أسابيع، اثنتي عشرة سفينة من السويس، وعلى متنها مدافع كبيرة وتسعمائة من حملة البنادق، فوصلوا إلى ميناء بيلول Beylul في شهر أغسطس ١٥٤١م، وتمكن أحمد جران من تنظيم قواته وأنزل خلال سنة واحدة عدة هزائم بجلاوديوز، وفي ٢٨ أغسطس ١٥٤٢م:

"واجه أحمد جران جيش جلاوديوز، وكان في كامل قوته، ومعه ٤٠٠ من الجنود البرتغاليين المسلحين بالبنـادق، بقيـادة كريسـتفاو دا جامـا، فـي معركـة وُوفـلا Wofla، وانتهـت المعركـة بكسر جيش الحبشة، وقُتل فيها ٢٠٠ من القوات البرتغالية، وأُسر قائدها كريستفاو دا جاما مع اثني عشر آخرين من رجاله، وقتله أحمد جران وأرسل رأسه إلى مصطفى باشا في اليمن"[٢].

وبعد خسائر البرتغال الجسيمة في الحملة على البحر الأحمر، وفي معركة وُوفلا، وبسبب سيطرة الأساطيل العثمانية على مضيق البحر الأحمر، قرر البرتغاليون الابتعاد عن منطقة القرن الإفريقي، وقل نفوذهم في مملكة الحبشة، وصارت علاقاتهم السياسية والتجارية بها محدودة، وصار للدولة العثمانية وكلاء للتجارة في سواكن ومصوع.

---

1) Giancarlo Casale: The Ottoman Age Of Exploration, P72, Published by: Oxford University Press, Inc., New York, 2010.
2) The Ottoman Age Of Exploration, P73.

وفي سنة ١٥٤٣م، استشهد احمد جران وهو يقاتل جلاوديوز ملك الحبشة، في معركة واينا داجا Wayna Daga، وخلفه ابن أخيه عباس، فتوقفت المواجهات مع الحبشة، إلى أن وصل إليها أُزدمير باشا.

وأُزدمير Ozdemir كان فارساً من المماليك، ثم انضم كغيره من المماليك للعثمانيين بعد فتح السلطان سليم لمصر، واشترك في حملة سليمان باشا الخادم والي مصر على الهند سنة ١٥٣٨م، وبعد العودة منها، كلفه سليمان باشا الخادم باستكشاف المناطق الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، في جنوب مصر، فأبحر أُزدمير في شتاء سنة ١٥٣٩م، على رأس قوة عسكرية، من السويس إلى القُصير، ثم سار بالقوة التي معه في اتجاه النيل، واستكشف المناطق والطرق التي بين النيل والبحر الأحمر، وكان أول من يصل إليها باسم الدولة العثمانية، وتمكن من إدخال عدة مدن فيها تحت سلطة والي مصر سليمان باشا الخادم[١].

وفي سنة ١٥٤٧م، عمت الفوضى اليمن، بعد تمرد إمام الزيدية شرف الدين على الحكم العثماني، واندلاع المواجهة بينه وبين والي اليمن العثماني أويس باشا، وهو ابن السلطان سليم الأول من جارية ملك يمين، ثم اغتيل أويس باشا، واستولى شرف الدين على تعز وصنعاء، وتمكن حسن بهلوان Hasan Pehlivan، أحد أتباع شرف الدين، من الاستيلاء على زبيد، قاعدة الحكم العثماني في اليمن.

وإبان الفوضى الناشبة في اليمن، زحف علي الطَولقي Ali Al Tawlaki، أحد رؤساء القبائل، من داخل اليمن على عدن، واستولى عليها، ثم أرسل مبعوثاً إلى هرمز، يعرض على البرتغاليين أن يعيد ميناء عدن إلى سيطرتهم في مقابل أن يساعدوه على الاحتفاظ بها في مواجهة العثمانيين، فقدِم إليه بيو دا نُورونها Paio da Noronha، في أسطول صغير، فاستولى البرتغاليون على عدن مرة أخرى.

وكان السلطان سليمان القانوني يولي اهتماماً كبيراً لليمن، لإشرافها على بحر العرب وخليج عدن ومضيق البحر الأحر ومدخله، ومن ثَم تحكمها في طرق التجارة والحج، فأمر الديوان الهمايوني والي مصر داوود باشا، أن يضبط الأمور في اليمن، فكلف أُزدمير باشا بذلك.

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P90.

وتمكن أُزدمير من إخماد ثورة الزيدية، واستعاد زبيد، واستولى على تعز وصنعاء من الإمام شرف الدين، ونقل عاصمة الحكم العثماني من زبيد إلى صنعاء، وفي سنة ١٥٤٨م صار والياً على اليمن، فتمكن خلال ولايته التي استمرت خمس سنوات من إخضاع كامل اليمن للحكم العثماني، وأنشأ ترسانة لصناعة السفن في ميناء المخا، وفي سنة ١٥٥٢م، وقَّع الإمام المطهر، الذي خلف شرف الدين على الزيدية، اتفاقية مع أُزدمير باشا، أقر فيها بتبعيته للسلطان العثماني(١).

وبعد انتهاء ولاية أُزدمير باشا على اليمن، انطلق إلى اسطنبول، والتقاه السلطان سليمان القانوني، فعرض عليه خطته لاستكمال السيطرة على البحر الأحمر وتأمينه، بإخضاع الموانى التي على سواحله الإفريقية، فوافق السلطان وكلف الديوان الهمايوني والي مصر بتقديم كافة التسهيلات لأُزدمير باشا، وإمداده بالقوات التي يريدها لشن حملته.

وفي سنة ١٥٥٥م أبحر أُزدمير باشا بقواته في النيل، حتى وصل إلى النوبة، ولم يتمكن من إكمال طريقه براً إلى الحبشة بسبب وعورة الطرق، فرجع إلى القاهرة، ثم أبحر مرة أخرى بحراً من السويس، حتى وصل أمام ميناء سواكن على شاطئ البحر الأحمر في السودان، وتمكن من أخذها بقواته، ثم أبحر منها إلى ميناء مصوع في الحبشة، فوصلها وأخذها في أواخر سنة ١٥٥٦م، ومنها اتجه إلى ميناء حرقيقو Arkiko، في الحبشة أيضاً، فاستولى عليها وعلى جزيرة دهلك القريبة منها، ومع نهاية سنة ١٥٥٧م كانت مملكة الحبشة قد فقدت السواحل الغربية للبحر الأحمر، السواحل الإفريقية، وصارت جميعها تحت السيادة العثمانية، وأُنشأت ترسانة جديدة لصناعة السفن في سواكن.

ثم انتقل أُزدمير باشا من سواحل البحر الأحمر إلى داخل مملكة الحبشة، وبعد عدة مواجهات مع ملكها جلاوديوز، استولى أُزدمير باشا، سنة ١٥٥٨م، على إقليم تيجراي Tigray شمال شرق الحبشة، وأسقط قلاع الحبشة في إبريم ودر وساي، ثم استولى على أمنع قلاعها في مدينة دبراوا Debarva، وحولها إلى قاعدة للقوات العثمانية، ومركز لحكمها، ووصل بفتوحاته إلى الشلالات في أعالي النيل، فصار النيل بضفتيه تحت السيادة العثمانية، ثم ضم مناطق تقطنها قبائل بوجا الوثنية في السودان، وأقام حاميات عثمانية في المناطق التي فتحها.

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P92.

وصارت المناطق التي فتحها أُزدمير باشا تابعة لإيالة/ولاية مصر، ولكن بسبب بعدها عن القاهرة، ووعورة الطرق البرية إليها، حولها الديوان الهمايوني إلى إيالة مستقلة، باسم إيالة الحبشة، وأصبح فاتحها أُزدمير باشا أول الولاة عليها.

وفي سنة ١٨٦٠م توفي أُزدمير باشا فاتح إيالة الحبشة وواليها، وخلفه مصطفى باشا.

وفي سنة ١٥٨٠م، هاجمت مملكة الحبشة إقليم تيجراي، وتمكنت من الاستيلاء على قلعة دبراوا الحصينة، وبدأت في مهاجمة سواكن ومصوع وحرقيقو، فأرسل سنان باشا والي مصر، خضر رئيس وبيرم بك، في حملة من سبعة آلاف جندي، فاستعادت في السنة التالية بعد سلسلة من الانتصارات على جيش الحبشة قلعة دبراوا، ثم أرسل سنان باشا الإمدادات اللازمة لتشييد سبعة حصون على الساحل الإفريقي، من سواكن إلى مصوع[1].

وقد ترتب على فتوحات أُزدمير باشا نتيجتان، الأولى هي إضعاف مملكة الحبشة، ونزع أنيابها ومخالبها، وفصل ما تبقى منها عن البحر الأحمر، وعزلها عن البحار مطلقاً، ومن ثَم قطع خطوط الاتصال بينها وبين الأساطيل والسفن البرتغالية.

والنتيجة الثانية، أنه بعد اكتمال سيطرة الدولة العثمانية على مواني البحر الأحمر الإفريقية، خصوصاً سواكن ومصوع، ومرابطة أسطول عثماني بصورة دائمة في خليج عدن، كما يقول دكتور عبد العزيز الشناوي، أستاذ التاريخ الحديث في جامعة القاهرة، في كتابه: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها:

"أصبح البحر الأحمر بحيرة عثمانية تقريباً، فمصر والحجاز واليمن تطل على أجزاء طويلة من ساحليه الشرقي والغربي، وقد تدعم الطابع الإسلامي العثماني للبحر الأحمر حين فتح السلطان سليمان المُشرع/القانوني كلاً من مصوع وسواكن، عام ١٥٥٧م ... وأضفت الدولة العثمانية الأمن والأمان على البحر الأحمر، وجعلته بحراً إسلامياً مغلقاً في وجه السفن البرتغالية، ثم عممت هذا المبدأ على جميع السفن المسيحية، فحرمت عليها الإبحار في مياه البحر الأحمر شمال ثغر المخا في اليمن، فكان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها في هذا

1) The Ottoman Age Of Exploration, P157.

الميناء، ثم يُعاد شحنها على سفن إسلامية، يعمل عليها قباطنة وبحارة مسلمون، وتمخر عباب البحر الأحمر وتتردد على ثغوره حتى السويس شمالاً، وكانت حجة الدولة أو ذريعتها في هذا المنع أن أهم الأماكن الإسلامية المقدسة في العالم على الإطلاق تقع في الحجاز، وتطل سواحل هذا الإقليم على مياه البحر الأحمر، فيجب أن تكون الملاحة فيه مقصورة على السفن الإسلامية"[١].

في الهند وأرخبيل الملايو:

في سنة ١٥٣١م، شن نونو دا كونها Nuno da Cunha، حاكم الهند ونائب ملك البرتغال فيها، حملة ضخمة للاستيلاء على ميناء ديو في خليج كامبايا، شمال ساحل مالابار، في الهند، وكان أسطوله يتكون من ٤٠٠ سفينة، على متنها ٣,٦٠٠ من الجنود، و ١٤٦٠ من البحارة، جميعهم برتغاليون، و ٢٠٠٠ من الجنود الذين أخذهم من مدن ساحل مالابار الخاضعة له، و ٥٠٠٠ من بحارتها، و ٨٠٠٠ من العبيد.

وفي طريقه إلى ديو، رسا الأسطول البرتغالي أمام جزيرة بيت Bete، على بعد ثمانية فراسخ/٤٠ كيلومتراً من ديو، وأرسل إلى حاكمها المغربي/المسلم، يطلب منه الموافقة على إنشاء حصن برتغالي بها، فرفض وتأهب بقواته للدفاع عن الجزيرة، فأطلق دا كونها مدافعه عليها، وفي يوم ٨ فبراير ١٥٣١م نزل إلى ميناء الجزيرة واقتحمها، واستولى عليها بعد معركة استشهد فيها حاكم الجزيرة وثمانمائة من جنوده، وقُتل بضع عشرات من البرتغاليين، منهم إيتور دا سيلفيرا، أحد قادة الأسطول[٢].

واتجه الأسطول البرتغالي إلى مدينة ديو، التي تقع على جزيرة صخرية، فوصلها يوم ١٦ فبراير، وضرب حصاراً حولها، وبدأ في قصف بالمدافع ليلاً ونهاراً، حتى كادت المدافع أن تنفجر Began To Burst، دون أن يتمكن من النزول إلى مينائها أو اقتحامها، واضطر دا كونها إلى رفع الحصار عن ديو، ورحل بجُل الأسطول إلى جوا، تاركاً أنتونيو دي سالدانها Antonio de Saldanha، في ستين سفينة للمرابطة خارج خليج كامبايا.

---

١) دكتور عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، ج١، ص٣٠-٣١، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٠م.

2) The Portuguese In India, Vol.I, P400-401.

ويفسر المؤرخ الإنجليزي فريدريك تشارلز دانفرز، هزيمة البرتغاليين وفشلهم في الاستيلاء على ديو، في عبارة مقتضبة، بأن:

"المغربي مصطفى Moor Mustapha تمكن من دخول ديو أثناء المعركة في جزيرة بيت"[١].

فإليك من يكون المغربي مصطفى، الذي رد البرتغاليين عن ديو، والتفاصيل التي أسقطها دانفرز.

يقول المؤرخ التركي يلماز أوزتونا إن:

"سلطان كوجرات، بهادور شاه، اجتمع بالأميرالين مصطفى بك وصفر رئيس، في جامبانير، وكان على رأس أسطول كوجرات الذي يقوده العثمانيون في ديو مالك دوغان، ابن ملك إياز الذي جاء من تركيا ... ودافع عن ديو ملك دوغان ومصطفى بك وصفر رئيس، وبعد أن ضعضعت المدافع البرية التركية الأسطول البرتغالي، أبحر الأسطول التركي وابتعد عن الساحل، وأغرق ٤٠ سفينة للعدو، واستولى على ٢٠ سفينة، وقُتل ١٥٠٠ برتغالي، وآلاف الهندوس ممن يخدمونهم، وأصبح مصطفى بك والياً على سورات وأميرالاً على خليج كامبايا"[٢].

وكانت هذه أول هزيمة حقيقية وثقيلة تنزلها دولة مسلمة بالأساطيل البرتغالية في الشرق.

وفي سنة ١٥٣٤م، وبعد أن غزا سلطان المغول ناصر الدين محمد هُمايون سلطنة كوجرات، واستولى على بعض الأقاليم في أطرافها، أرسل سلطان كوجرات بهادُور شاه رسالة إلى ألفونسو دي سوزا Affonso de Sousa، أدميرال الأسطول البرتغالي في بحر الهند، يطلب مساعدة البرتغاليين في مواجهة سلطنة المغول، فوافق حاكم الهند ونائب الملك نونو دا كُونها، بشرط أن يتنازل بهادور شاه عن مدينة باسين Bassein، في ساحل مالابار، لتكون تابعة لملك البرتغال

1) The Portuguese In India, Vol.I, P402.

٢) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٦.

إلى الأبد، وأن يوافق على أن يقيموا حصناً في مدينة ديو الحصينة في خليج كامبايا، التي فشلت جميع محاولاتهم السابقة للاستيلاء عليها، وأن تكون جمارك ديو للبرتغاليين، فوافق بهادور شاه[١].

وبعد أن انتهت المواجهة بين بهادور شاه وسلطان المغول هُمايون، واصطلحا على إعادة هُمايون الأقاليم التى استولى عليها، بدأ بهادور شاه في التراجع عن السماح للبرتغاليين بالبقاء في ديو، وإتمام الحصن الذي بدأوا في إنشائه، وطلب من نونو دا كُونها إجراء مفاوضات حول انسحابهم من ديو.

ولما أحس بهادور شاه أنه فقد ديو، وأن البرتغاليين لن يعيدوها إليه مرة أخرى، أرسل مبعوثاً إلى السلطان سليمان القانوني، يطلب مساعدته في رد البرتغاليين عن ديو، فوافق السلطان سليمان القانوني على شن حملة على الهند، وجعل على قيادتها سليمان باشا الخادم، والي مصر، وكان لسليمان باشا مهمتان:

"الأولى إنهاء مظالم البرتغاليين التي استهدفت مسلمي الهند ... والمهمة الثانية لسليمان باشا هي إعادة فتح طرق تجارة الهند أمام البحارة المسلمين وطرق المرور للعثمانية، ولمصر كقطر عثماني"[٢].

وفي يوم ٣ رمضان ٩٤٣هـ/ فبراير ١٥٣٧م، ذهب بهادور شاه في سفينة من جامبانير إلى ديو بدعوة من نونو دا كُونها لاستكمال التفاوض، ولكن دا كُونها أرسل إلى بهادور شاه أنه مريض ولا يستطيع النزول إلى الشاطئ حيث المكان المتفق عليه للتفاوض، وطلب أن يكون اللقاء في حصن ديو، فهبط بهادور شاه في قارب إلى الشاطيء مع حارسه رومي خان، وذهب في صحبة الضباط والجنود البرتغاليين إلى الحصن، فوجد دا كُونها صحيحاً ولا تبدو عليه علامات المرض، فارتاب بهادور شاه في الأمر، وطلب العودة إلى قاربه وتأجيل التفاوض، وبعد أن وصل إلى قاربه:

"قصفت السفن البرتغالية القارب، فألقى السلطان بهادور ورومي خان Rumi Khan بأنفسها في الماء، والتقط البحارة البرتغاليون رومي خان، بينما غرق السلطان في الأمواج"[١].

---

1) The Portuguese In India, Vol.I, P406.

٢) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٨.

وفي ٢٢ يونيو ١٥٣٨م، تحرك سليمان باشا الخادم، والي مصر، في أسطول من ست وسبعين سفينة، وعلى متنه تسعة آلاف من الرجال، منهم ألفان من الجنود، ومدافع كبيرة، فوصل أمام عدن في يوم ٢٧ يوليو، فاقتحمها، وكان حاكمها عامر بن داوود قد تركها وفر منها، فاعتقله سليمان باشا وأعدمه بتهمة عدم إطاعة الخليفة وتقديم التسهيلات للبرتغاليين، وعين بهرام بك حاكماً لعدن، وترك معه حامية من خمسمائة جندي وعشرين مدفعاً كبيراً[٢].

وعامر بن داوود هو حاكم عدن الذي وقع المعاهدة مع إيتور دي سيلفيرا سنة ١٥٣٠م، وأقر فيها بتبعيته لملك البرتغال.

وأبحر سليمان باشا الخادم بأسطوله إلى الهند، فأخذ قلعة جوكالا وقلعة كات من البرتغاليين بعد أن قتل منهم ألف جندي، ثم اتجه إلى ديو، فوصلها يوم ٤ سبتمبر ١٥٣٨م، وضرب حصاراً حولها، وبدأ في قصف الحصن البرتغالي بالمدافع، وكان قائده أنتونيو دي سيلفيرا، وتهدمت أجزاء من الحصن، ولكن سليمان باشا الخادم رفع الحصار عن ديو بعد عشرين يوماً، لأن محمود شاه سلطان كوجرات، الذي خلف بهادور شاه، تحالف مع البرتغاليين سراً، وامتنع عن إرسال الطعام والمستلزمات التي طلبها منه العثمانيون.

بل وأيضاً:

"قام محمود شاه بخدعة ضد العثمانيين، إذ أقدم على تمرير رسالة مزيفة عبر بعض الجواسيس إلى سليمان باشا، يتحدث فيها عن قدوم أسطول برتغالي يتكون من ثلاثمائة سفينة إلى ديو"[٣].

وفي طريق عودته من الهند:

"مكث سليمان باشا الخادم في مواني الشحر وعدن ومخا، بعد أن تجول في سواحل عُمان وحضرموت وأخضعها للعثمانية، وأرسل المدافع والبنادق إلى مسلمي أريتريا والصومال ضد

---

1) The Portuguese In India, Vol.I, P420.

٢) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٧.

٣) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص٢٣٠-٢٣١.

البرتغاليين وحليفتهم مملكة الحبشة، وعَين مصطفى بك والياً على إيالة/ولاية اليمن، على أن يكون المركز في زبيد، وترك له مائة مدفع كبير، وكانت إدارة اليمن حتى ذلك الحين سنجق/لواء، وأعلن الإمام الزيدي الموجود في الأقسام الداخلية خضوعه"[١].

ورغم أن حملة سليمان باشا الخادم على الهند التي استغرقت سنة كاملة، لم تتمكن من فتح ديو، فقد أقر الديوان الهمايوني بأغلبية الأصوات، عند مناقشته للتقرير التفصيلي الذي قدمه سليمان باشا، بأن الحملة كانت ناجحة، وحققت نتائج مهمة، لأنها:

"سيطرت على قواعد مهمة في اليمن، مثل عدن وزبيد، ومكنتهم من بسط سيطرتهم على الطرق التجارية المارة في جنوب غرب آسيا، وانتزاع هذه السيطرة من أيدي البرتغاليين ... وتم توسيع شبكة الاستخبارات العثمانية في الهند بعد حملة سليمان باشا"[٢].

وفي سنة ١٥٤٥م، وصلت تقارير إلى خواو دي كاسترو João de Castro، حاكم الهند ونائب ملك البرتغال، أن السفن التجارية العثمانية بدأت تظهر في المراكز التجارية البعيدة، في البنجال شمال شرق الهند، وفي مملكة بيجو Pegu في بورما[٣].

وفي أبريل سنة ١٥٤٦م، حاصر أسطول عثماني بقيادة صفر رئيس، وكان سليمان باشا الخادم قد تركه ليعاون ملك كامبايا، بالاشتراك مع أسطول أحمد شاه سلطان كوجرات، وأسطول زامورين ملك كاليكوت، حاصروا ديو، واستمر الحصار وقصف الحصن البرتغالي سبعة أشهر، دون ان يتمكنوا من إسقاطه، ثم وصل أسطول برتغالي كبير، من تسعين سفينة، بقيادة خواو دي كاسترو إلى ديو، واستشهد صفر رئيس، فرُفع الحصار[٤].

وإبان وجوده في الهند، أرسل سليمان باشا الخادم أسطولاً من أربع سفن، بقيادة حمد خان Hamad Khan، إلى علاء الدين شاه، سلطان أتشيه في جزيرة سومطرة، وكان أبوه السلطان علي شاه قد تمكن من توحيد مدن سومطرة، وأخرج البرتغاليين منها، وصارت السلطنة في

---

١) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٢٩ .

٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٣٠.

3) The Ottoman Age Of Exploration, P74.
4)The Portuguese In India, Vol.I, P472.

مواجهات دائمة معهم، وفي يونيو سنة ١٥٣٩م تم توقيع اتفاقية، بين السلطان علاء الدين وحمد خان، نائباً عن سليمان باشا الخادم، مضمونها:

"تقديم المساعدة والقوات اللازمة للسلطان علاء الدين، لكي يتمكن من حرية العبور في مضيق ملقا والسيطرة عليه، وتأسيس خط تجاري بين سلطنة أتشيه Aceh وموانى البحر الأحمر العثمانية، فصارت تصل إلى جدة كل سنة ثماني سفن محملة بالتوابل عبر هذا الطريق، وفي الوقت نفسه تم الاتفاق بين سلطان أتشيه ومبعوث سليمان الخادم وبين بات ماراكار Pate Marakkar، قائد المسلمين في مابيلا Mappila، جنوب الهند، وكان في حوزته أسطول من خمسين سفينة صغيرة وآلاف الرجال، ليقوم بمهاجمة السفن البرتغالية في بحر سيلان"[١].

وفي سنة ١٥٦٤م أرسل سلطان أتشيه علي بن علاء الدين سفارة ورسالة إلى خليفة الإسلام السلطان سليمان القانوني، يطلب فيها إمداده بسفن ومدافع، لمواجهة البرتغاليين في ملقا، فأرسل إليه الصدر الأعظم صُقُللو محمد عشرة مدافع كبيرة مع أطقمها وخبراء لتدريب جنود أتشيه على استخدامها، وأرسل السلطان سليمان القانوني معهم:

"مبعوثاً خاصاً لا يُعرف عنه سوى أنه مبعوث جلالته لطفي His Majesty's Servant Lutfi، وكانت مهمته استخبارية، وهي أن يقيم في أتشيه، ويقوم بجمع معلومات عن القوات البرتغالية، وعن تجمعات المسلمين في شواطئ المحيط الهندي، ويقوم بتحريضهم على الثورة ضد الحكم البرتغالي"[٢].

وفي الوقت نفسه أرسل السلطان سليمان القانوني رسالة غاضبة إلى ملك البرتغال سباستياو الأول Sebastião I، وكانت المفاوضات دائرة بين الدولة العثمانية والبرتغال، طوال السنوات السابقة، بطلب من البرتغال، من أجل توقيع اتفاقية سلام في المحيط الهندي، وفي رسالته يقول السلطان سليمان القانوني لملك البرتغال:

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P58.
2) The Ottoman Age Of Exploration, P123.

"إذا كنت ترغب حقاً في جلب الأمن والسلام إلى هذه البلاد، فيجب عليك بمجرد أن يصلك هذا الفرمان السلطاني Imperial Ferman أن توقف جميع الهجمات على الحجاج والتجار المسلمين في الهند، وأن ترسل رسالة مع مبعوث موثوق فيه للاتفاق على الترتيبات في هذه المنطقة، وإذا لم يحدث هذا، فبعون الله الرحيم سوف نفعل كل ما هو ضروري لاستعادة الأمن والنظام في هذه الأقاليم، وحينئذ لا مجال للكلام عن اتفاقية سلام"(١).

وواكب وصول المبعوث السلطاني لطفي إلى الهند، وإرسال السلطان رسالته إلى ملك البرتغال:

"تسارع الأحداث في الهند، فانفجرت التجمعات المسلمة في حرب مفتوحة ضد قوات البرتغال وحلفائها، فاتحد سلطان باجابور عادل شاه مع نظام الملك، سلطان أحمد ناجار، في هضبة الدكن وسط الهند، وتمكنا من اكتساح مملكة فيجاياناجارا Vijayanagara الهندوسية الموالية للبرتغال، وفي جنوب الهند حاصر الراجا علي، قائد مسلمي مابيلا، الحصن البرتغالي في كانانور، وفي الوقت نفسه قام ابن عمه كوتي موسى Kutti Musa، بتكوين أسطول صغير، وبدأ في مهاجمة السفن البرتغالية في سواحل مالابار"(٢).

وبعد عامين في الهند وأتشيه عاد المبعوث السلطاني لطفي إلى اسطنبول وقدم تقريراً إلى الصدر الأعظم صُقُللو محمد Sokollu Mohamed، وكان السلطان سليمان القانوني على رأس حملة يحاصر فيها مدينة تسيجتفار/سيكتوار Szigetvár، في المجر، وفي تقرير لطفي أن:

"سلطان أتشيه علي علاء الدين أرسل معي سفيراً ورسالة يقول فيها إنه يرغب بشدة في أن تكون سلطنته تابعة للدولة العثمانية، وأن يحكمها باسم جلالة السلطان، ملاذ العالم Refuge of The World، وظل الله في الأرض، مثل حكام مصر واليمن، وبكوات جدة وعدن، وهذه أيضاً هي رغبة سلطان كوجرات، والمسلمون في كل مكان من المحيط الهندي يتطلعون إلى السلطان على أنه سلطانهم وحاميهم، ورغم أن المسلمين في سيلان وكاليكوت يعيشون تحت حكم سلاطين غير مسلمين، فإنهم صاروا يبنون المساجد مطمئنين، ويفتتحون الخطبة باسم

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P125.
2) The Ottoman Age Of Exploration, P125.

السلطان المعظم، ويدعون له بطول عمره ودوام ملكه، ولما علم سلطان كاليكوت وسلطان سيلان بوجودي أرسلا مبعوثيهما برسائل الترحيب بالسلطان والرغبة في خدمة جلالته"[١].

وفي سنة ١٥٦٧م، في عهد السلطان سليم الثاني، الذي خلف أباه السلطان سليمان القانوني الذي توفي سنة ١٥٦٦م غازياً، وهو يحاصر مدين سيكتوار، وتلبية لسفارة سلطان أتشيه ورسالته:

"أمر الصدر الأعظم صُقُللو محمد بتجهيز أسطول في السويس، خصيصاً من أجل سلطنة أتشيه في سومطرة، فتم تجهيز أسطول من خمس عشرة سفينة حربية، وسفينتي نقل، وتم تزويده بمدافع كبيرة مع أطقمها، وقوات من الجنود حملة البنادق، وفرق من المهندسين والحدادين والنحاسين، وتم تكليف كورد أوغلو خضر Kurdoğlu Hizir، أدميرال أسطول الهند، بقيادة الحملة إلى أتشيه، وأن يكون معه مرشداً مبعوث السطان لطفي"[٢].

وبعد أن تم تجهيز الأسطول، عمت الفوضى اليمن مرة أخرى في أواخر سنة ١٥٦٧م، بعد أن اندلعت ثورة زيدية، بقيادة الإمام المطهر، وتمكن من الاستيلاء على صنعاء وتعز وعدن، وأرسل إلى البرتغاليين يعرض التعاون معهم، فتم تكليف والي مصر سنان باشا، بتسيير حملة إلى اليمن، فتغيرت خطة الحملة على أتشيه، وأبحر أسطول خضر رئيس إلى اليمن، واشترك في إخماد ثورة الزيدية واستعادة اليمن.

وفي منتصف سنة ١٥٦٨م، أبحر أسطول خضر رئيس من اليمن إلى أتشيه، على أن يعود مرة أخرى إلى اليمن ومصر محملاً بالتوابل، وترك تحت إمرة سلطان أتشيه علي علاء الدين سفينتين حربيتين، ومدافع كبيرة، وخمسمائة من الجنود العثمانيين.

وما أن وصلت السفينتان الحربيتان والمدافع والجنود إلى أتشيه في سومطرة حتى:

"استخدم سلطان أتشيه السفن والمدافع في حصار الحصن البرتغالي في ملقا، وبدأت موجة جديدة من الهجمات على البرتغاليين في كل مكان من المحيط الهندي، وفي المالديف قام كوتي موسى من كاليكوت بإخراج ملكها المسيحي الذي نصَّبه البرتغاليون، وتمكن من السيطرة على

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P128.
2) The Ottoman Age Of Exploration, P130.

الأرخبيل سنة ١٥٦٩م، وفي السنة التالية اتحد سطان باجابور عادل شاه مع نظام الملك سلطان أحمد ناجار مرة أخرى، وقاموا بمهاجمة الحصن البرتغالي في شول، ثم في جوا، واشتركت معهم في الحصار قوة عثمانية بمدافعها وبنادقها، وبمساعدة علي راجا، صهر كوتي موسى، تمكن زامورين ملك كاليكوت من حصار الحصن البرتغالي في شالي يام Chaliyam، وسواه بالأرض، سنة ١٥٧١م"(١).

وفي سنة ١٥٧٣، أعلنت الدولة العثمانية رسمياً أن سلطنة أتشيه ولاية عثمانية، وأن أي هجوم عليها، يُعد هجوماً على الدولة العثمانية، فانسحب الأسطول البرتغالي من البحار والممرات المائية حول جزيرة سومطرة.

وصارت السفن التجارية من أتشيه:

"تذهب إلى اسطنبول والقاهرة محملة بالتوابل، في مقابل المدافع والبنادق والذخيرة، وأقامت الدولة العثمانية وكلاء عنها للتجارة في مواني كاليكوت ودابول وكامبايا، وغيرها من مواني مالابار، مثل ما في أتشيه، دون حتى أخذ موافقة البرتغاليين Even Without Portuguese Approval"(٢).

وبخصوص تقرير مبعوث السلطان لطفي عن المسلمين في كاليكوت وسيلان:

"خصصت الدولة العثمانية مائة قطعة ذهبية، ترسل سنوياً إلى مسلمي كاليكوت وسيلان، من أجل بناء المساجد وعمارتها وإقامة الجُمع فيها باسم خليفة الأرض، وتمكن المسلمون في كاليكوت من إنشاء سبعة وعشرين مسجداً في مدنها الاثنتين والعشرين، بينما أقام المسلمون في سيلان أربعة عشر مسجداً"(٣).

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P133.
2) The Ottoman Age Of Exploration, P147.
3) The Ottoman Age Of Exploration, P148.

في الخليج:

في سنة ١٥٤٧م، أصبح محي الدين بيري رئيس أميرال أسطول الهند/ السويس، وقد اشتهر رئيس بيري بكتابه: كتاب البحرية، الذي أهداه للسلطان سليمان القانوني سنة٩٣٢هـ/١٥٢٦م، واشتهر أكثر بخريطته التي رسمها للعالم بيده، وألحقها بالكتاب، والتي يظهر فيها لأول مرة في تاريخ الخرائط المحيط الأطلنطي مع الشواطئ الشرقية الشمالية والوسطى للقارة الأمريكية المطلة عليه[١].

وكانت أولى حملات بيري رئيس لاستعادة عدن، التي تواطأ علي الطَولقي، إبان ثورة الزيدية والإمام المطهر، سنة ١٥٤٧م، مع البرتغاليين في هرمز، وسلمها لبيو دا نُورونها، فبعد اندلاع الثورة والفوضى في اليمن، كلف داوود باشا والي مصر أُزدمير باشا، بإخماد الثورة وضبط الأمور في داخل اليمن، وفي الوقت نفسه:

"أرسل أسطول السويس لاستعادة عدن من البرتغاليين، وتمكن بيري رئيس من طرد البرتغاليين منها واستعادة قلعتها في ٢٦ فبراير ١٥٤٨م"[٢].

وفي سنة ١٥٥٠م، أرسل نائب ملك البرتغال وحاكم الهند ألفونسو دا نُورونها أخاه أنطونيو دا نُورونها، في أسطول من تسع عشرة سفينة، وألف ومائتي جندي، لاستعادة القطيف والبصرة، فحاصر القطيف وقصف قلعتها بالمدافع ثمانية أيام، وأجبر حاميتها العثمانية على الاستسلام، وكانوا أربعمائة جندي، ثم تركها دون أن يحتل القلعة، واتجه إلى البصرة، ولكن وصلته أنباء تجهيز حاكم البصرة العثماني جيشاً كبيراً لمواجهته، فانسحب إلى القطيف ثم عاد إلى هرمز[٣].

وكان قوباد باشا حاكم البصرة قد أعد جيشاً من ألف وخمسمائة جندي، وأسطولاً صغيراً من السفن الحربية في رأس الخليج، مع وصول أنباء وصول الأسطول البرتغالي إلى القطيف.

---

١) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص٣٣٥.

٢) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٣٣ .

3) The Portuguese In India, Vol.I, P497.

وبعد انسحاب الأسطول البرتغالي، صدرت الأوامر من الديوان الهمايوني في اسطنبول، إلى داوود باشا والي مصر، بتجهيز أسطول لشن حملة على المواقع البرتغالية في الخليج ومضيق هرمز.

وفي سنة ٩٥٥هـ/مايو ١٥٥٢م، أبحر أسطول الهند من السويس، بقيادة بيري رئيس، وكان يتكون من أربع وعشرين سفينة، وعلى متنه ثمانمائة وخمسون جندياً، فمر بجدة ومضيق البحر الأحمر/باب المندب وعدن، إلى أن وصل إلى مسقط في خليج عُمان، وكانت في حوزة البرتغاليين منذ سنة ١٥٠٧م:

"**فضرب الحصار حولها من البحر، ثم نزل مع جنوده إلى الشاطئ وأقاموا معسكرات ونصَّبوا المدافع، وظلوا يقصفون الحصن البرتغالي ثمانية عشر يوماً، إلى أن تهدم الحصن واستسلم قائده خواو دي لشبوا João de Lisboa، فأسره بيري رئيس مع ستين من جنود الحامية، وكانوا تسعمائة**"(١).

وبعد أن حرر بيري رئيس مسقط من البرتغاليين، أبحر إلى جزيرة قِشم، إحدى أكبر مراكز التجارة في الخليج، فأخذها، ومنها اتجه إلى هرمز، معقل البرتغاليين في الخليج، فوصلها يوم ١٩ سبتمبر ١٥٥٢م، وضرب الحصار حولها ستة عشر يوماً، قصف خلالها الحصن البرتغالي بالمدافع، دون أن يتمكن من النزول إلى شواطئها أو الاستيلاء عليها، فرفع عنها الحصار واتجه إلى البصرة، وكان الوصول إليها هو المهمة الرئيسية التي كُلف بها(٢).

وبينما رئيس بيري يتجه بأسطوله في الخليج شمالاً نحو البصرة، كان الأسطول البرتغالي القادم من الهند في طريقه إلى هرمز، يقوده ألفونسو دا نُورونها، نائب الملك وحاكم الهند بنفسه، بعد أن وصلته أنباء ظهور الأسطول العثماني في الخليج(٣).

ووصلت إلى بيري رئيس أنباء الأسطول البرتغالي، وحذره بعض الأدلاء من استحالة عبوره مضيق هرمز والخروج من الخليج إذا وصل إليه هذا الأسطول وأغلقه، وكانت أغلب سفن أسطول

---

1) The Portuguese In India, Vol.I, P498.

٢) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص٣٣٧.

3) The Portuguese In India, Vol.I, P499.

بيري رئيس في حاجة إلى صيانه وإصلاح، بعد رحلته الطويلة من السويس إلى البصرة، والمعارك التي خاضها، فترك الأسطول والأسرى والغنائم التي جمعها في البصرة، بعد أن سلمها إلى واليها قوباد باشا، وأبحر في ثلاث سفن صغيرة جنوباً ليخرج من الخليج، وتحطمت إحدى السفن عند البحرين، ووصل بالسفينتين الأخريين إلى السويس(١).

وهاك خريطة بخط سير حملة بيري رئيس من السويس إلى البصرة



خريطة بخط سير حملة بيري رئيس من السويس إلى البصرة، سنة ١٥٥٢م.

وفي يوليو سنة ١٥٥٢م، تم إسناد قيادة أسطول الهند/السويس إلى مراد رئيس، وكان حاكم القطيف، فأبحر من البصرة في خمس عشرة سفينة من الأسطول الذي تركه بيري رئيس، يريد الوصول إلى السويس، وقرب مضيق هرمز التقاه الأسطول البرتغالي بقيادة دييجو دا نُورونها، واندلعت معركة عنيفة بين الأسطولين، استمرت طوال اليوم والليل، وكانت خسائر الطرفين فيها جسيمة، واستشهد من قادة الأسطول العثماني سلمان رئيس ورجب رئيس، وغرقت سفينة القيادة في الأسطول البرتغالي، فانسحب الأسطول العثماني ورجع إلى البصرة، وانسحب الأسطول

١) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص٣٣٨.

البرتغالي وعاد إلى هرمز، وكانت هذه المواجهة بين الأسطولين في هرمز إحدى أعنف المواجهات وأكثرها دموية في تاريخ المواجهات البحرية العثمانية البرتغالية(١).

وفي شهر المحرم سنة ٩٦١هـ/ديسمبر ١٥٥٣م، كلف السلطان سليمان القانوني سيدي علي شلبي رئيس، بقيادة أسطول الهند، وإعادة الأسطول من البصرة إلى السويس، وكان سيدي علي شلبي إذ ذاك قائد الترسانة البحرية في اسطنبول ومستشار السلطان في الشؤون البحرية، وقبلها كان أحد قادة الأسطول العثماني في البحر المتوسط.

ووصل سيدي علي شلبي إلى البصرة براً، عن طريق الموصل وبغداد، فقام بإصلاح سفن الأسطول، وأرسل سفناً صغيرة لاستطلاع الخليج ومضيق هرمز، ثم أبحر في شهر شعبان٩٦١هـ/يوليو ١٥٥٤م من البصرة، وعند مضيق هرمز قابله أسطول برتغالي من خمس وعشرين سفينة، بقيادة فرناو دا نُورونها Fernão da Noronha، ابن حاكم الهند ونائب الملك ألفونسو دي نُورونها، يوم ٩ أغسطس ١٥٥٤م، فأطلق سيدي علي شلبي مدافعه عليه، فغرقت إحدى سفن الأسطول البرتغالي واختفى من أمام أسطول سيدي علي شلبي(٢).

وظن سيدي علي شلبي أن الأسطول البرتغالي قد انسحب نهائياً، فخرج من مضيق هرمز، وواصل الإبحار حتى وصل أمام مسقط، وكان فرناو دا نُورونها بعد غرق إحدى سفنه قد اتجه إلى هرمز، فتزود بالماء والمؤن، ثم أبحر هو الآخر ليلحق بأسطول سيدي علي شلبي في البحر المفتوح.

وفي رمضان ٩٦١هـ/٢٥ أغسطس ١٥٥٤م:

"التقى الأسطولان في خليج عُمان، واندلعت معركة عنيفة أخرى بينهما، خسر فيها فرناو دا نُورونها ست سفن من أسطوله، وخسر سيدي علي شلبي سبع سفن، فانسحب دا نُورونها إلى

---

1) The Portuguese In India, Vol.I, P500.

٢) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٣٥.

هرمز، وواصل سيدي علي شلبي إبحاره بإحدى عشرة سفينة متجهاً إلى بحر العرب والسويس"[١].

وفي بحر العرب قرب حضرموت واجهت سيدي علي شلبي عاصفة عنيفة، يسميها ربابنة المحيط الهندي طوفان الفيل، فأظلمت السماء ليلاً ونهاراً، وأمطرت مطراً شديداً، وهاج المحيط حتى صارت أمواجه مثل قمم الجبال، وامتلأ بالدوامات.

وقد وصف سيدي علي شلبي في مذكراته مياه المحيط الهندي والبحار الشرقية، وما واجهه فيها، وهو يقارنها بالبحر المتوسط والبحار الغربية، فيقول:

"مقارنة بالطقس المروع في البحار الشرقية، تبدو الأحوال المناخية في البحار الغربية مثل لعبة أطفال Child's Play، وتصبح الأمواج الشاهقة في البحر المتوسط مثل قطرة من الماء في أمواج المحيط الهندي"[٢].

ومع هبوب العواصف وطوفان الفيل، غرقت ثلاث سفن، وألقى سيدي علي شلبي بالحمولة الثقيلة لبقية السفن في المحيط، ووجه سفنه وأشرعتها نحو الشرق مع اتجاه الرياح، فوصل إلى دامان Daman في كوجرات، شمال ساحل مالابار، يوم ٣٠ أغسطس ١٥٥٤م، وكان واليها ملك أسد عثمانياً، فأهدى إليه سيدي علي شلبي سفينتين بمدافعها، ثم اتجه إلى ميناء سورات، فترك لواليها العثماني أيضاً خداواند خان بقية سفنه بأطقمها ومدافعها، والتقاه سلطان كوجرات أحمد شاه الثاني، فشكره على هداياه، وأرسل معه رسالة إلى السلطان سليمان القانوني، يعلن فيها ولاءه للسلطان والدولة العثمانية، وأنه يحكم سلطنة كوجرات باسمها[٣].

ومن سورات رحل سيدي علي شلبي براً مع خمسين من جنوده، إلى دلهي، فاستقبله شاه المغول تيمور أوغلو هُمايون بترحاب شديد واستضافه في بلاطه، وواصل رحلته من دلهي، فمر بالسند ومُلتان وخيبر وكابول، ثم بسمرقند وبخارى، ثم اتجه جنوباً ودخل فارس، وعبرها حتى دخل العراق ووصل إلى بغداد.

---

1) The Portuguese In India, Vol.I, P502.
2) The Ottoman Age Of Exploration, P101.

٣) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٣٥.

وفي شهر مايو ١٥٥٧م، وصل سيدي علي شلبي إلى اسطنبول، وكان السلطان سليمان القانوني في أدرنة، فاستدعاه إليها، وسلمه سيدي علي شلبي ثماني عشرة رسالة من سلاطين الدول وأمراء البلاد المسلمة التي مر بها، كلها تعلن ولاءها للسلطان.

وظل السلطان سليمان القانوني يستمع إلى رحلة سيدي علي شلبي وما رآه وواجهه فيها عدة أيام، ثم أمر بأن تُصرف له ولجنوده جميع الرواتب المتأخرة في السنوات السابقة، وأمره أن يدون رحلته وما شاهده فيها، فسجلها سيدي علي شلبي في الكتاب الذي ألفه وسماه: مرآة البلدان(١).

وقد تعطلت بعد ذلك الحملات العثمانية على الخليج، بسبب تجدد نزاعها وحملاتها على الدولة الصفوية في فارس المتاخمة للأناضول، وهي الحملات التي انتهت بانسحاب الشاه الصفوي طهماسب إلى جنوب غرب فارس، ونقل عاصمته إلى أصفهان، مدينة اليهود.

في سواحل إفريقيا:

في أواخر سنة ١٥٨٥م، أرسل حسن باشا والي اليمن مير علي بك قائد ميناء المُخا، في سفينتين حربيتين، إلى سواحل إفريقيا جنوب القرن الإفريقي، وكانت مهمته التواصل مع التجمعات المسلمة في كينيا وموزمبيق، واستكشاف أماكن تصلح لإقامة قاعدة عثمانية في شرق إفريقيا، من أجل كسر سيطرة البرتغال على سواحل إفريقيا، واحتكارهم للتجارة فيها.

وكان مير علي بك قائد الحملة العثمانية التي تمكنت من استعادة مسقط، سنة ١٥٨١م، وكان البرتغاليون قد استولوا عليها مرة أخرى، بعد سنة من فتحها الأول على يد بيري رئيس، سنة ١٥٥٢م.

وأبحر مير علي بك من ميناء المُخا في اليمن، وفي بداية رحلته ارتطمت إحدى سفينتيه بالصخور، فتركها وأكمل إبحاره في سفينة واحدة، ووصل في شهر يناير ١٥٨٦م إلى مُقديشيو:

"فاستقبله أهل مُقديشيو استقبال الأبطال A Hero's Welcome، وعندما علم أشرافها بمهمته، أقسموا على الولاء للسلطان/مراد الثالث، وجمعوا له طواعية أموالاً لتمويل حملته،

١) تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص٣٣٦ .

وأرسلوا معه أدلاء ليرشدوه في رحلته إلى الجنوب، وما حدث في مُقديشيو تكرر بحذافيره في مواني براوة Brava، وجوجو Jugo، وباتي Pate، وقد أبدى المؤرخون الإسبان المعاصرون لمير علي إعجابهم به، وعجبهم من النجاح الذي حققه بسفينة واحدة"(١).

وكون مير علي أسطولاً من خمس عشرة سفينة صغيرة من المسلمين في مدن الساحل الإفريقي، وواصل الإبحار جنوباً، وكانت حصون البرتغال في مواني الساحل الإفريقي ضعيفة وحامياتها قليلة العدد، فقرر روي لوبيز سالداجو Ruy Lopes Salgado، قائد القوات البرتغالية في سواحل إفريقيا، عدم مواجهة مير علي، وتحصن في ماليندي الموالية للبرتغال منذ مر بها فاسكو دا جاما في رحلته الأولى، وترك السفن العابرة أمام السواحل بلا حماية، فكان أول ضحايا مير علي سفينة تجارية تتبع حاكم حصن ديو البرتغالي.

ثم حصل مير علي على جائزة أكبر:

"فاستولى بمساعدة أهل جزيرة لامو Lamu على سفينة حربية برتغالية، وأسر جنودها وقائدها الكابتن روك دي بريتو Roque de Brito، ثم استولى على سفينة أخرى تتبع حاكم شول البرتغالي، وفي نهاية شهر مارس كان مير علي قد كوَّن من لا شئ أسطولاً من أربع وعشرين سفينة"(٢).

وخلال شهر أبريل ١٥٨٦م أبحر مير علي بأسطوله بطول الساحل الإفريقي، وعقد تحالفات مع جميع المدن والمواني الواقعة عليه، ما عدا ماليندي، ووضع أسس حصن عثماني في مُمباسا، وبعد أن صار الساحل الإفريقي، من مقديشيو وجزيرة لامو شمالاً إلى مُمباسا وموزمبيق في الجنوب، تابعاً للحكم العثماني، عاد مير علي إلى المُخا في اليمن، ومعه مائة أسير برتغالي، وسفراء من مدن الساحل الإفريقي التي مر بها وعقد تحالفات معها، والأسطول الذي كونه محمل بالذهب والعاج وأنواع مختلفة من البضائع، تقدر قيمتها بخمسة عشر ألف كروزادوس ذهبية(٣).

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P165.
2) The Ottoman Age Of Exploration, P165-166.
3) The Ottoman Age Of Exploration, P166.

وبعد أن ترك مير علي سواحل إفريقيا، أرسل ملك ماليندي رسالة إلى دوارت دي منزيس Duarte de Meneses، حاكم الهند البرتغالي، يخبره بما حدث، وأنه يتوقع وصول أسطول عثماني كبير، فأرسل أفونسو دي ميلو Afonso de Melo، في شهر يناير ١٥٨٧م، في أسطول من ثماني عشرة سفينة وستمائة وخمسين جندياً، فهاجم جزيرة باتي وهدم بيوتها وقتل ملكها والعشرات من أهلها، ثم انتقل إلى مُمباسا، وأمر جنوده بنهبها، ثم أتته أنباء عن حركة الأسطول العثماني في البصرة، وأنه يتجه إلى قاعدة البرتغاليين في هرمز، فترك سواحل إفريقيا وعاد إلى هرمز(١).

وفي أواخر سنة ١٥٨٨م، وبتكليف من حسن باشا والي اليمن، عاد مير علي بك إلى الساحل الإفريقي، في أسطول من خمس سفن، إحداها التي استولى عليها من روك دي بريتو، فرسا أولاً في مُقديشيو، ثم اتجه إلى ماليندي، وكان قائد الحصن البرتغالي وحاكم الساحل الإفريقي ماتيوس منديس دي فاسكونسيلوز Mateus Mendes de Vasconcelos، قد علم من جواسيسه بوصول مير علي إلى الساحل، فما أن وصل أسطول مير علي حتى أطلق عليه مدافعه، فغادر علي بك ماليندي إلى مُمباسا.

وكان جواسيس البرتغال في سواحل اليمن، قد أرسلوا إلى حاكم الهند مانويل دي سوزا كوتينهو Manuel de Sousa Coutinho، في جوا، يخبرونه بخروج أسطول مير علي إلى سواحل إفريقيا، فأرسل كوتينهو أسطولاً من عشرين سفينة وتسعمائة جندي، بقيادة أخيه تومي دي سوزا كوتينهو Tomé de Sousa Coutinho، وفي ماليندي انضم إليه دي فاسكونسيلوز بثلاث سفن، ثم انطلقوا إلى مُمباسا، فوصلوا إليها في يوم ٥ مارس ١٥٨٩م.

وحاصر الأسطول البرتغالي ميناء مُمباسا، وبدأ في قصف المدينة وقصف الحصن الذي أقامه مير علي ويتحصن فيه بالمدافع، حتى تهدمت أجزاء منه، وفي يوم ٧ مارس نزل كوتينهو بجنوده إلى شاطئ مُمباسا، فقتلوا من وجدوهم من أهلها(٢).

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P172.
2) The Portuguese In India, Vol.II, P83.

وبينما كوتينهو يتأهب لاقتحام الحصن، ظهرت قبيلة زيمبا Zimba في الجانب الآخر من مُمباسا، ويقول المؤرخ جيانكارلو كاسالي، في كتابه: عصر الكشوف العثمانية، إن المصدر الأساسي لما حدث هو كتاب: إثيوبيا الشرقية Etiopia Oriental، للمؤرخ البرتغالي خواو دوس سانتوس João Dos Santos، وفيه أن:

"زيمبا قبائل وثنية من أكلة لحوم البشر Cannibalistic Ttribe، يبلغ عددها حوالي عشرين ألفاً، تحركت من داخل إفريقيا، ووصلت إلى مشارف مُمباسا قبل وصول الأسطول البرتغالي ببضعة أيام، ومع اهتمام مير علي بالشاطئ المواجه للحصن أهمل تحصين القناة الضحلة التي في داخل مُمباسا، ومع ظهور قبائل زيمبا لم يكن أمام مير علي سوى نقل سفينتين والجزء الأكبر من رجاله إلى الجهة الأخرى لمنعهم من عبور القناة والوصول إلى الحصن، وعندما وصل الأسطول البرتغالي إلى مُمباسا أطلق عليه مير علي مدافعه، ولكنه لم يصبه، بينما تمكن كوتينهو من إصابة الحصن، واستولى كوتينهو على سفن مير علي الموجودة في الميناء، ثم أرسل سفناً فدارت حول جزيرة مُمباسا حتى وصلت إلى مدخل القناة التي تفصل الجزيرة عن أراضي ممباسا الداخلية، فوجدوا العثمانيين مشغولين بزيمبا ويحاولون منعها من عبور القناة إلى الجزيرة، فحاصر البرتغاليون العثمانيين بينهم وبين زيمبا، فقتل رجال زيمبا مائة من العثمانيين، وأسر البرتغاليون سبعين آخرين، واختبأ مير علي مع بعض رجاله داخل الجزيرة بين أهل مُمباسا، وأرسل رئيس زيمبا رسولاً إلى كوتينهو يطلب منه أن يسمح له بعبور القناة لمواجهة العثمانيين وأهل مُمباسا، فوجدها كوتينهو فرصة سانحة للقضاء على العثمانيين دون تعريض رجاله للخطر، فسحب سفنه من القناة إلى الشاطئ، وهُرع أهالي مُمباسا إلى الشاطئ لكي يركبوا قواربهم الصغيرة ويبتعدوا بها، ثم ظهر مير علي على ظهر حصانه، ورجال زيمبا يلاحقونه، والسهام حوله كالمطر، فاتجه بأقصى سرعة إلى السفن البرتغالية"(١).

وهذه الرواية، التي تظهر فيها قبيلة زيمبا أكلة لحوم البشر، لم يذكرها المؤرخ الإنجليزي فريدريك تشارلز دانفرز في كتابه: البرتغاليون في الهند على الإطلاق، وأشار إليها المؤرخ التركي يلماز أوزتونا إشارة عابرة ودون تفاصيل، وأوردها المؤرخ الإيطالي الأمريكي جيانكارلو كاسالي

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P176

بتفاصيلها، ولكنه يشكك في صحتها، والشيء الوحيد المتفق عليه، أن الأسطول البرتغالي تمكن من أسر مير علي مع بعض رجاله، ثم أرسلهم إلى لشبونة.

ورغم هذه الهزيمة واختفاء مير علي بك، لم يتمكن البرتغاليون من السيطرة على مدن الساحل الإفريقي المسلمة، ما عدا ماليندي في كينيا، بسبب دعم ولاية الحبشة العثمانية التي تسيطر على إفريقيا في الداخل لهذه المدن، والتعليمات الآتية من الديوان السلطاني بتحريك قاعدة تمركز القوات العثمانية من دبراوا في الداخل إلى سواكن، لتكون قريبة من مدن الساحل، وأيضاً بسبب انشغال البرتغاليين في الهند بمواجهة شركة الهند الشرقية الهولندية ونظيرتها البريطانية، التي بدأت تظهر في الهند ومياه الشرق.

نتائج الحملات العثمانية:

ترتب على مواجهة الدولة العثمانية وأساطيلها للوجود البرتغالي في كل مكان من المحيط الهندي والبحار المتفرعة منه، زعزعة نفوذ البرتغال وهيمنة أساطيلها على بحار الشرق والسواحل المطلة عليه، وكسر احتكارها للتجارة في بلدانه، وفتح طرق الحج والتجارة أمام المسلمين، وازدهار طريق التجارة القديم عبر البحر الأحمر، وضربة قاصمة لطريق التجارة البرتغالي عبر رأس الرجاء الصالح، وحلول الدولة العثمانية محل البرتغال في السيطرة على تجارة الشرق والطرق العابرة بها.

وأول انجازات الدولة العثمانية وأهمها، غلق البحر الأحمر أمام أساطيل البرتغال، وأمام جميع السفن غير المسلمة، وتحويله إلى بحيرة مسلمة، وتأمين طريق الحج واحتكار التجارة العابرة فيه.

وفي رحلته التي عبر فيها البحر الأحمر سنة ١٥٧٠م، كان هذا هو وصف فليبو بيجافيتا Filippo Pigafetta، وهو رحالة من فينيسيا، لأوضاع التجارة في سواحل البحر الأحمر:

"والترسانة في السويس لا تقوم ببناء سفن حربية فقط، بل تقوم أيضاً ببناء سفن تجارية للسلطان الذي يحتكر التجارة في البحر الأحمر، ويُمنع منعاً باتاً Strictly Forbidden أن

يمتلك أحد سفناً أو يجعلها تبحر إلا بإذن من السلطان، وبعد دفع الرسوم المقررة لذلك، والتجارة عبر البحر الأحمر مقصورة على المسلمين فقط Restricted To Muslims"[١].

ورغم أن السفن التجارية التابعة لولاية مصر، وللدولة العثمانية كلها، وكذلك سفن الحجاج، التي تعبر البحر الأحمر وتستخدم موانيه، كانت معفية من الرسوم والجمارك، فقد:

"بلغت الجمارك التي تحصلها ولاية اليمن من السفن التجارية العابرة للبحر الأحمر، سنة ١٥٦١م، ٤,٥ مليون قطعة نقود ذهبية"[٢].

ومع احتكار التجارة وتأمينها في البحر الأحمر، أحيت الدولة العثمانية طريق التجارة البري، من مواني البحر المتوسط ، حلب وطرابلس لبنان والإسكندرية، إلى بغداد والبصرة في الخليج، وسمحت للتجارة الأوروبية وللتجار من مختلف الأمم والملل بالعبور من هذا الطريق، ما لم تكن في حرب مع الدولة العثمانية، فازدهرت المواني والمدن الواقعة على هذا الطريق، وصارت مراكز تجارة دولية، تعبر منها قوافل تجارة التوابل والحرير والخزف الآتية من الهند والصين وأرخبيل الملايو في طريقها إلى مواني أوروبا، وتم إنشاء محطات للبريد بين مواني البحر المتوسط والخليج، وحتى أعضاء الحكومة البرتغالية في الهند Portuguese Officials صاروا يستخدمون هذا الطريق في التواصل مع لشبونة وإرسال رسائلهم إليها[٣].

وبإحياء طريق التجارة من الهند إلى مواني البحر المتوسط، عبر البحر الأحمر والخليج، وانخفاض تكلفة النقل عبر هذا الطريق، قلت التجارة عبر طريق رأس الرجاء الصالح، الذي تسيطر عليه الأساطيل البرتغالية، ومع تحول حركة تجارة التوابل والحرير والخزف في غرب أوروبا إلى مواني البحر المتوسط العثمانية، ركدت أسواق التوابل في البرتغال.

وفي تقرير لبيريس، سفير البرتغال في الفاتيكان، كتبه سنة ١٥٦٠م، أن:

---

1) The Ottoman Age Of Exploration, P142

٢) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص٣٩٨.

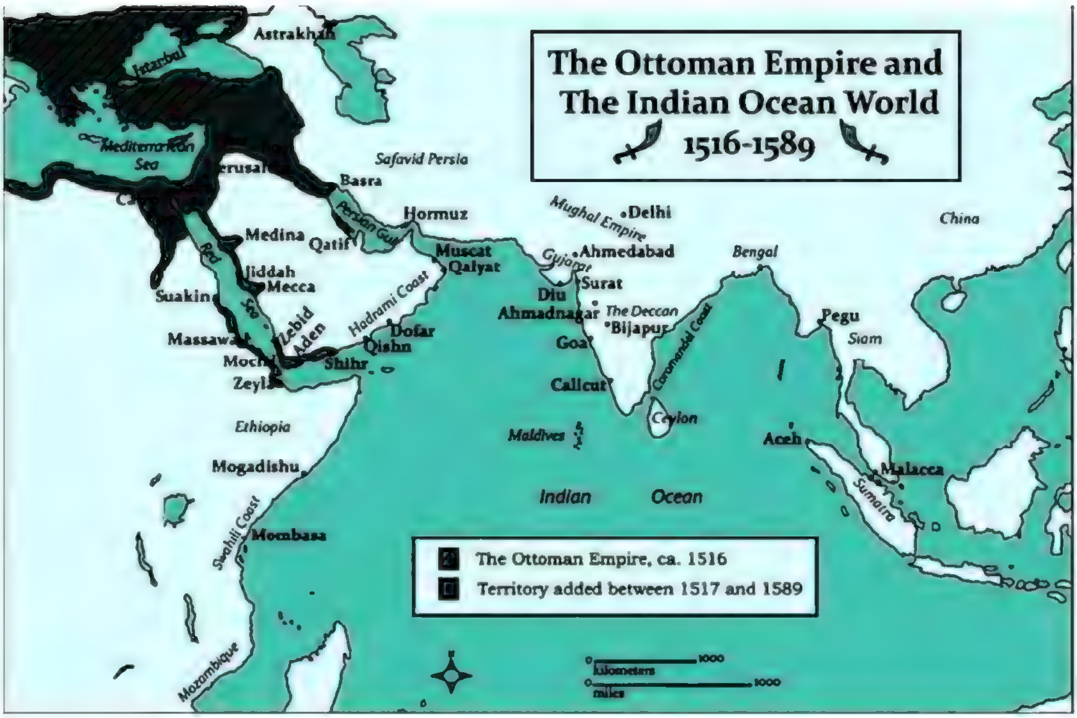
3) The Ottoman Age Of Exploration, P143.

"ميناء الإسكندرية يستقبل أربعين ألف قنطار من البهارات سنوياً، بينما لا يصل إلى لشبونة إلا كميات ضئيلة"(١).

ومع تقدم العثمانيين وخبراتهم في صناعة السلاح، صاروا المورد الرئيسي للمدافع والبنادق والذخائر إلى الممالك المسلمة في كل مكان من المحيط الهندي، وسيطروا في مقابل ذلك على تجارة المعادن في أسواقها المحلية Home Market، في شواطئ المحيط الهندي(٢).

وبعد فتوحات أُزدمير باشا في داخل إفريقيا، وإنشاء ولاية الحبشة، وسيادتها على ضفتي النيل، سيطرت الدولة العثمانية على تجارة الذهب والمعادن والمنتجات الزراعية في داخل إفريقيا، فصارت المَوْرد الرئيسي لولاية الحبشة، وجزءًا من موارد خزانة الدولة العثمانية.

وهاك خريطة بفتوحات الدولة العثمانية في الشرق، ومواقعها في شواطئ المحيط الهندي



خريطة بفتوحات الدولة العثمانية في الشرق، ومواقعها في شواطئ المحيط الهندي.

---

١) سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ص٣٩٩.

2) The Ottoman Age Of Exploration, P146.

الفهرس

دكتور بهاء الأمير

- **المؤلفات:**

١) كوسوفا، المذابح والسياسة، دار النشر للجامعات.
٢) النور المبين، رسالة في بيان إعجاز القرءان الكريم ، مكتبة وهبة.
٣) المسجد الأقصى القرءاني، دار الحرم للتراث.
٤) الوحي ونقيضه، بروتوكولات حكماء صهيون في القرءان، مكتبة مدبولي.
٥) اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، مكتبة مدبولي.
٦) اليهود والماسون في الثورات والدساتير، مكتبة مدبولي.
٧) اليهود والماسون في ثورات العرب، مكتبة مدبولي.
٨) شفرة سورة الإسراء، بنو إسرائيل والحركات السرية في القرءان، مكتبة مدبولي.
٩) بروتوكولات حكماء صهيون، تقديم ودراسة، مكتبة مدبولي.
١٠) الانفجار الكبير، ماذا غير القرءان في العالم وماذا أحضر للإنسانية، مكتبة وهبة.
١١) تفسير القرآن بالسريانية دسائس وأكاذيب والأصول القبالية لتفسير الحروف المقطعة بالسريانية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٢) النازية واليهود والحركات السرية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٣) التفسير القبالي للقرآن وفقه البلابيص، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٤) ولي الأمر المتغلب وهندسة المعيار والميزان، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٥) اليهود والحركات السرية في الكشوف الجغرافية، وشركة الهند الشرقية البريطانية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٦) بلاليص ستان، تحت الطبع.

- **دراسات ومقالات منشورة على الإنترنت(•):**

١) يهود الدونمة.
٢) اليهود والماسون في قضية الأرمن.
٣) حركة الجزويت اليسوعية.

(•) روابط الدراسات في مدونة صناعة الوعي، ومدونة عالم الوحي على الإنترنت.

٤) عن الإخوان والماسونية.
٥) معركة المادة الثانية من الدستور.
٦) قواعد في إدارة الصراعات والتعامل مع الأزمات.
٧) عن الفتنة والديمقراطية والحركات الإسلامية.
٨) نقد كتاب اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد.
٩) نقد استخدام حساب الجُمَّل والأعداد في الاستنباط من القرءان.
١٠) حقيقة ما يحدث في مصر.
١١) فرعون بين التوراة والقرءان.
١٢) المسألة الإخناتونية.
١٣) معركتنا مع اليهود نموذج قديم وأحداث جديدة.
١٤) الفريضة الغائبة عما يحدث في مصر، العلماء والميزان.
١٥) الشميطاه واليوبيل.
١٦) القبالاه والموسيقى.
١٧) نقد نظرية الأكوان المتوازية.
١٨) البِتكوين، العملة المشفرة.
١٩) حوار مع قادياني.
٢٠) قضية تحرير المرأة.
٢١) أصول دراسة إسلام بحيري عن سِن السيدة عائشة عند زواج النبي بها.
٢٢) رد على نقد بخصوص كتاب شفرة سورة الإسراء:١ ،٢ ، ٣.
٢٣) اليهود الأخفياء.
٢٤) رسم المصحف وكلمات القرآن.
٢٥) اليهود والاشتراكية.
٢٦) المملكة وأردوغان.
٢٧) حفظة الأكلشيهات.
٢٨) اليهودي كرستوفر كولمبس ومشروع المارانو.
٢٩) آل عثمان حماة مياه الإسلام.
٣٠) يهود الخزر.

٣١) الأزمة في الجزائر وأزمة الشرعية في الدول العربية.

٣٢) أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

٣٣) الأرض المسطحة.

• **قصص قصيرة:**

١) جيفارا.

٢) مجاهد بن عبد الله الأزهري.

٣) علميها رمي الحجر.

٤) أبو خربان.

المرئيات(•):

<u>أولاً:</u> مع الكاتب والمفكر الإسلامي جمال سلطان في برنامج حوارات بقناة المجد:

١) بروتوكولات حكماء صهيون، في مواجهة دكتور عبد الوهاب المسيري ودكتور أحمد ثابت.

٢) اليهود في الغرب، في مواجهة دكتور عمرو حمزاوي.

<u>ثانياً:</u> مع الشاعر المبدع والإعلامي اللامع أحمد هواس في برنامج قناديل وبرنامج كتاب الأسبوع بقناة الرافدين:

١) الوحي ونقيضه.

٢) المسجد الأقصى القرءاني.

٣) خفايا شفرة دافنشي.

٤) ملائكة وشياطين.

٥) دور الحركات السرية في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية والرموز اليهودية والماسونية في الدولار الأمريكي.

٦) القبالاه، التراث السري اليهودي ، وآثارها في العالم.

٧) التنجيم والأبراج، أصلها وحقيقتها.

٨) البلدربرج حكومة العالم الخفية.

٩) الرمز المفقود.

(•) مرئيات دكتور بهاء الأمير موجودة على شبكة المعلومات الدولية ، الإنترنت، في موقع يوتيوب وفي العديد من المواقع الأخرى.

١٠) لماذا العراق؟ خفايا الغزو الأمريكي للعراق.

١١) نبوءة نهاية العالم، الأساطير والحقائق.

١٢) البابية والبهائية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.

١٣) القاديانية والنصيرية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.

ثالثاً: مع الإعلامي والداعية الإسلامي خالد عبد الله في برنامج مصر الجديدة بقناة الناس:

١) خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الأول.

٢) خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثاني.

٣) خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثالث.

٤) الاحتفال الماسوني عند الهرم الأكبر، حقيقته والهدف منه.

٥) دكتور محمد البرادعي، مواقفه وأفكاره.

رابعاً : مع الإعلامي والشاعر والداعية الإسلامي دكتور محمود خليل في برنامج الدين والنهضة بقناة مصر ٢٥:

١) الفوضى في مصر، أسبابها ومن المستفيد منها.

٢) مصر بعد الثورة، الأخطار الداخلية والخارجية.

٣) رمضان شهر القرءان.

٤) الثورة والدولة.

خامساً : مع الإعلامي ياسر عبد الستار في قناة الخليجية:

١) الماسونية والثورات.

سادساً : في قناة الحدث :

١) من خلف الثورات.

٢) المشروع اليهودي وحروب الجيل الرابع.

٣) من هي إسرائيل؟

٤) يهودية إسرائيل.

٥) حقيقة الماسونية

سابعاً: في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٣م:

١) نقد كتاب: سر المعبد للأستاذ ثروت الخرباوي.

ثامناً: في عالم السر والخفاء، برنامج من إعداد وتقديم دكتور بهاء الأمير:

١) عالم السر والخفاء.
٢) جولة في عالم السر والخفاء.
٣) بيان الإله.
٤) الوحي.
٥) الطلاسم.
٦) في الملأ الأعلى.
٧) خريطة الوجود.
٨) الأمم المتحدة.
٩) حقوق الإنسان.
١٠) تحرير المرأة.
١١) اتفاقيات المرأة في الأمم المتحدة.
١٢) الهندوسية.
١٣) جمعية الحكمة الإلهية.
١٤) الحكيمة فوزية دريع.
١٥) حركة العهد الجديد والأمم المتحدة القبالية.
١٦) الماسونية وبناتها.
١٧) الوحي ونقيضه.
١٨) أخوية فيثاغورس.
١٩) المخطوط العبري.
٢٠) قلب الماسونية.
٢١) وسائل الانفصال الاجتماعي.

تاسعاً: مقاطع وحوارات مصورة في المنزل:

١) بلاليص ستان: سبعة عشر مقطعاً.
٢) رد على نقد: أربعة مقاطع.
٣) الشورى والديمقراطية: أربعة مقاطع.
٤) أخطاء الإسلاميين: مقطعان.

٥) نبوءات: أربعة مقاطع.
٦) المادة الثانية من الدستور: خمسة مقاطع.
٧) التاريخ السري للغرب: ستة مقاطع.
٨) الوحي ونقيضه.
٩) العقائد والسياسة.
١٠) الناس من غير الدين بهائم.
١١) نفي الألوهية والخلق والوحي أصل الليبرالية والماركسية.
١٢) الأناركية.
١٣) حوار مع معالج بالطاقة.
١٤) علميها رمي الحجر.

- **السمعيات :**

١) برنامج في مكتبة عالم بإذاعة القرءان الكريم، ثلاث حلقات.
٢) برنامج مقاصد الشريعة بإذاعة القرءان الكريم، أربع عشرة حلقة.